

## الباب الرابع

### نتائج وآثار

« حين كنت أكتب الجزء الأول من « رأس المال » ،  
كان أبناء الجيل الجديد ، أولئك الأدعياء المتهورون  
التافهون يباهون بأنهم ينظرون إلى هيكل نظرتهم إلى  
« كلب ميت » . . . . لذا بادرت وأعلنت صراحة أنني  
لست إلا تلميذاً لهذا المفكر العملاق . . »  
« كارل ماركس - رأس المال »

## الفصل الأول

### الجدل الماركسي

#### أولا - محاولات غريبة

٣٤٧ - لن تجد بين مؤسسي الماركسية من يجادل في الأثر الذي تركه الجدل الهيجلي على فكر ماركس ، وهو أثر يتعدى الحدود الضيقة التي يعادها اليوم كثير من الماركسيين - بل ستجدهم مجذعين على أن الجدل الماركسي ليس إلا محاولة لتطبيق الجدل الهيجلي في ميادين جديدة وهم يعترفون بذلك صراحة دون أن يجدوا في هذا الاعتراف حرجاً ولا غضاضة : « فقد كان ماركس وأنجلز ، يريان في جدل هيجل أوسع مذهب من مذاهب التطور ، وأوفرها مضموناً وأشدها عمقاً ، وأثمن اكتساب حقيقته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . . وكانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراعى لهذا وحيدة الجانب ، فقيرة المضمون ، تشوه وتفسد السير الواقعي للتطور . . في الطبيعة والمجتمع . . »<sup>(١)</sup>.

وكان ماركس يقول دائماً : « إن الإطار المثالي الذي غلف الجدل الهيجلي ، لم يمنع هذا الرجل مطلقاً من أن يكون أول من عرض الصورة العامة للجدل بطريقة واعية وشاملة . . »<sup>(٢)</sup> بل نراه قبل إصدار كتابه « رأس المال » يعيد قراءة منطق هيجل ويقول في رسالة إلى « إنجلز » . . « لقد أقيمت في البحر بنظرية الربح التي ظهرت حتى الآن ، أما من حيث المنهج فقد عدت من جديد وألقت نظرة سريعة على منطق هيجل الذي خدمني خدمة كبرى . . »<sup>(٣)</sup>. ولقد لخص إنجلز رأى الماركسية في عبارة جامعة حين كتب إلى « شمت » يقول باختصار شديد

(١) V. Lenin : "Marx, Engels, Marxism". p. 20 & Selected works. Vol. I. p. 36.

(٢) K. Marx : "Capital". Vol. I. p. 20.

(٣) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 100.

« من المستحيل أن نستغنى عن هييجل . . . »<sup>(١)</sup> . فهو على حد تعبيره « ماحدة جدلية »<sup>(٢)</sup> .

٣٤٨ — وعلى عاتق « لينين » كانت تقع مهمة التطبيق العملي للنظرية الماركسية ، وإقامة المجتمع الشيوعي لأول مرة . ولذا نراه في سنوات التحضير للثورة يعد نفسه فلسفياً فينقطع ثلاث سنوات في مكتبه بيرن بسويسرا ، ويعكف على قراءة مؤلفات هييجل ، ويقف طويلاً عند المنطق الكبير يلخص ويشرح ويعلق ، ثم يقرأ ما كتبه الشراح والنقاد من أمثال : سترلنج ، ومكتجارت ، وبيلى . . وغيرهم . ويخرج في النهاية بهذه النتيجة : « يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم « رأس المال » لكارل ماركس — لاسيما الفصل الأول منه — ما لم ندرس منطق هييجل ونفهمه بأكمله ، ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان ، ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين !! »

ولهذا نراه يحرص على علاج هذا النقص عند الماركسيين بعد الثورة ، فكان أهم ما يشغل باله هو إرساء قاعدة فلسفية متينة للمجتمع الجديد ، فكتب في العدد الثالث من مجلة «تحت راية الماركسية » ( مارس — ١٩٢٢ ) — مقالا أطلق عليه الماركسيون أنفسهم اسم «وصية لينين الفلسفية» لأنها آخر ما كتب في الفلسفة<sup>(٣)</sup> . يدعو إلى إقامة قاعدة فلسفية راسخة وصلبة ويرى أنه ما لم يتحقق ذلك « فإن العلم الطبيعي ، والمذهب المادى ، لن يستطيعا الصمود في نضالهما ضد هجمات الأفكار البرجوازية المتلاحقة . . »<sup>(٤)</sup> وليس من سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا إذا تجمع المثقفون والمفكرون والكتاب ، وتضافرت جهودهم «للقيام بدراسة جادة وواعية للجدل الهيجلي ، وتفسيره تفسيراً مادياً ، ذلك الجدل الذى طبقه ماركس عملياً في كتابه رأس المال ، وفي مؤلفاته السياسية والتاريخية» . بل يرى لينين أن الأمر لا يقتصر على مجرد دراسة الجدل الهيجلي وشرحه ، وإنما يجب أن يتعداه إلى الدعاية لهذا الجدل . وهو يعترف بأن هذه مهمة شاقة وعسيرة وقد تكون عرضة لكثير من

Ibid. p. 436.

(١)

F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 274.

(٢)

O. Yakhot : "Dialectical Materialism". p. 221.

(٣)

V. Lenin : Selected Works Vol. 3. p. 721.

(٤)

الأخطاء لكنها مع ذلك ضرورية ولازمة ، ولا مندوحة عن القيام بها : « إذ لا بد أن ندعم هذا الجدل من جميع الجوانب ، فنقوم بنشر مقتطفات متنوعة من مؤلفات هيغل الرئيسية ونفسرها تفسيراً مادياً ، ونشرحها مستعينين بأمثلة من الطريقة التي طبق بها ماركس الجدل ، ومستعينين كذلك بشواهد من ميدان العلاقات الاقتصادية والسياسية » .

ثم يصل لينين في نهاية هذا المقال إلى قمة الفهم الناضج لوضع الجدل الهيجلي في الفلسفة الماركسية حين يقول : « وفي اعتقادي أن جماعة المحررين والمساهمين في مجلة «تحت راية الماركسية» يجب أن ينظموا صفوفهم في جماعة تحمل اسم «جماعة الأصدقاء الماديين للجدل الهيجلي» . وسوف يجد علماء الطبيعة المحذنين ، إذا ما عرفوا سبيل البحث الصحيح وإذا ما عرفنا نحن كيف نساعدهم - سوف يجد علماء الطبيعة حين نفسر الجدل الهيجلي تفسيراً مادياً ، مجموعة من الإجابات عن المشكلات الفلسفية التي أثارها الثورة في العلم الطبيعي » .

ويرى لينين أنه ما لم يضع المذهب المادى نصب عينيه القيام بهذا العمل وتحقيقه تحقيقاً منظماً فإن المادية لن تصمد في كفاحها ، وسيجد علماء الطبيعة البارزين أنفسهم عاجزين عن القيام بالاستنتاجات والتعميمات الفلسفية التي جعل منها تطور العلم الطبيعي وتقدمه الهائل ضرورة لا غنى عنها .

٣٤٩ - غير أن اعتراف مؤسسى الماركسية بفضل الجدل الهيجلي بهذه الصورة لم يرق - فيما يبدو - لكثير من الماركسيين الغيورين على ماركس أكثر من ماركس نفسه ، والذين عز عليهم أن يحرم من شرف اكتشاف هذا المنهج. فظهرت تيارات غريبة حاول بعضها أن يسدل الستار عنها على هيغل ، أو أن يهون على أقل تقدير من شأن الدور الذي لعبه منهجه الجدل في الفلسفة المادية الجدلية. وحاول أن يجد له أسانيد من ماركس نفسه ، فراح يتصيد عبارات مما كتب ويفسرها على هواه. ويبدو أن «جوزيف ستالين» كان على رأس هذا الفريق الذي حاول أن يطمس المعالم الهيجلية بأى شكل حتى ولو بالخروج عن أبسط حدود الأمانة العلمية<sup>(١)</sup>. يقول في كتيبه الصغير « إن ماركس وأنجلز يشيران عادة إلى هيغل

(١) يستشهد « ستالين » في كتيبه الصغير الذى وضعه عن الجدل بمثل من إنجلز عن التغيرات =

حين يعرفان المنهج الجدلي ، غير أن ذلك لا يعني قط. أن جدل ماركس وإنجلز هو نفسه جدل هيغل فهما لم يقتبسوا من جدل هيغل سوى « نواته العقلية » وطرحا غلافه المثالي ثم : وسماه ، وأعطياه طابعاً علمياً حديثاً .. » (١) . وستالين هنا يحاول أن يهون من شأن التراث الجدلي الهيجلي. فماركس لم يأخذ من هذا التراث سوى « النواة العقلية » مجرد « نواة » لا أكثر ولا أقل. ولم يدرك ستالين — الذي لم يقرأ هيغل في أغلب الظن — أن « النواة » التي كان يقصدها ماركس هي منطق هيغل كله ، وأن هيغل شرح هذه « النواة » في ثلاثة مجلدات — فضلاً عن الموسوعة — وأنها ثمرة جهد شاق وثيد ضم بين جوانبه كل ما أطلق عليه الماركسيون فيما بعد اسم « القوانين الأساسية للجدل » ، و « القوانين الكلية للحركة » ، و « المقولات الماركسية » و « نظرية المعرفة » ، وما أطلق عليه ستالين نفسه اسم « خصائص المنهج الجدلي الماركسي » بل لم يدرك ستالين أن كتيبه هذا ليس إلا انعكاسات سطحية لما كتب هيغل .

٣٥٠ — وانساق كثير من الماركسيين في هذا التيار، فعمدوا إلى إغفال ذكر هيغل عند الحديث عن « القوانين الأساسية للجدل » أو عند الحديث عن « مقولات الجدل » لكي يفسحوا الطريق لرفع لافتات جديدة عن « قوانين الجدل الماركسي » ، و « مقولات الجدل الماركسي » ، ولهذا عمدوا لإزاحة هيغل ليظن ماركس وحده في الصورة ، فقرأهم يتحدثون عنه في الثوب المثالي فقط حين يعرضون للحديث عن « الصراع بين المثالية والمادية » ولا بأس من أن يذكروا في هذه المناسبة كلمة تاريخية سريعة عابرة عن « جدله المثالي » وما فيه من صوفية ، ثم يركزون بشكل ظاهر على الجانب المثالي من فلسفته ، ولا يفتأون يرددون

= الكمية أخذه الأخير عن هيغل ولكنه أشار صراحة إلى المرجع وهو الموسوعة ( انظر جدل الطبيعة ص ٨٧ ) غير أن ستالين يسوق النص كما لو كان مثلاً يضربه إنجلز ( انظر كتابه ص ٨ ) . وما يدعو إلى الدهشة أن نجده بعد ذلك بقليل يقطع سياق حديث إنجلز ليحذف سطرين يقول فيهما إنجلز « أما الميدان الذي تلاقى فيه قانون الطبيعة الذي اكتشفه هيغل وكلل بانتصارات بالغة الأهمية فهو ميدان الكيمياء . . . إلخ . » جدل الطبيعة ص ٨٧ - ٨٨ . وواضح أن ستالين تعمد حذف اعتراف إنجلز باكتشاف هيغل لهذا القانون . ضارباً بالأمانة العلمية عرض الحائط حتى في اقتباس النصوص الماركسية نفسها .

« الأخطاء » التي وقع فيها ، والآراء الاجتماعية « الرجعية » التي عبر عنها مغتبطين بعثورهم على مجال واسع للنقد والتجريح . وكثيراً ما يطيب لهم الحديث عما يسمونه « التخريف الميتافيزيقي عند هيغل . . » ، بعد أن أفاضوا في الشرح والتعليق ، والمدح والثناء على « جدل الواقع » الذي كشف عنه ماركس .<sup>(١)</sup> حتى انتهى الأمر أخيراً إلى القول بأن هيغل « شوه الجدل كما فعل أفلاطون من قبل في نظريته عن المثل . . . »<sup>(٢)</sup> .

٣٥١ - ومنهم من يتفق مع التيار الأول في الهدف والغاية وإن اختلفت الوسيلة ، فتراهم يتصيدون هذه المرة عبارات من إنجلز لينتهوا إلى هذه النتيجة الغريبة وهي « إذا كان هيغل قد رد للجدل اعتباره ، فهو لم يكشف عن أسسه الموضوعية . . »<sup>(٣)</sup> . إلا أنهم لا يفسرون لنا المقصود بهذه « الأسس الموضوعية » أهي تعنى مثلاً أن هيغل كان لا بد أن يكون مادياً حتى لا تطارده اللعنات . . ؟ أغلب الظن أنهم لا يقصدون بها شيئاً سوى فتح الباب لإغداق الثناء على ماركس وإنجاز لاكتشافهما المنهج الجدلي « بأسسه الموضوعية السليمة » ..

والغريب في هذا الفريق أنه لا يعتبر هيغل مصدراً ومنبعاً للجدل الماركسي بل يذهب إلى أن ماركس وإنجلز قاما بدراسة العلوم الطبيعية دراسة فاحصة ثم استخلصا منها هذا المنهج « فلم يأت ماركس وإنجلز بالمنهج الجدلي من الخارج بطريقة تعسفية . بل استخلصاه من العلوم نفسها على أساس أن موضوعها هو الطبيعة الموضوعية التي هي جدلية » . : وبالتالي فالدور الذي لعبه هيغل في تاريخ الفلسفة عديم القيمة بالنسبة للماركسية على الأقل لأن اعتماد ماركس لم يكن ينصب على هيغل وإنما على العلوم الطبيعية « ولهذا السبب تتبع ماركس وإنجلز طوال حياتهما تقدم العلوم . فكان المنهج الجدلي يتحدد في دقة بقدر ما تتعمق معرفة العالم . . » ولهذا السبب أيضاً لم يكن من الممكن أن يكتشف المنهج الجدلي

(١) الأستاذ محمد مفيد الشوباشي: «الفلسفة السياسية» ص ١٢٧ دار الكشاف بيروت ١٩٥٥ .

(٢) Yakhot : op. cit. p. 128.

(٣) G. Politzer, G. Besse, & M. Caveing : "Principes Fondamentaux de Philoso-

phie". p. 28.

على أيدي الماديين الفرنسيين من فلاسفة القرن الثامن عشر من أمثال « ديدرو » ، « وهو لباخ » و « هلفيتيوس » ، لأن العلم في القرن الثامن عشر لم يكن يتيح لهم ذلك . ففكرة التناقض وصراع الأضداد وغيرها من الأفكار الجدلية « كانت عند القدماء مجرد تخمينات أما عند الجدال الماركسي فهي مستخلصة من الحقائق التي جمعها العلم نتيجة أبحاثه في ميادين شتى ، ذلك لأن دراسة ظواهر الطبيعة ، والعلاقات الاجتماعية ، ونشاط الإنسان العقلي ، تكشف عن متناقضات كثيرة ، وعن صراع بين اتجاهات وجوانب متعارضة »<sup>(١)</sup> . ولهذا فإن عدم تطور العلوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر جعل المادية في هذا الوقت لا تستطيع أن تتبع بشكل منطقي فكرة تطور العالم وترابطه ولهذا كانت مادية ميتافيزيقية<sup>(٢)</sup> .

وأهم المكتشفات العلمية التي ظهرت في عصر ماركس وإنجلز ومكنتهما — في رأي هذا الفريق من اكتشاف المنهج الجدلي ثلاثة ذكرها « إنجلز » في كتاباته المختلفة وهي :

١ — اكتشاف تحول الطاقة ، وهو الذي أنتج فكرة التغير الكيفي ، وأظهر أن مختلف القوى الفيزيائية عبارة عن وجود لحركة المادة .

٢ — اكتشاف الخلية الحية . وهو الذي كشف سر تركيب الكائنات العضوية الحية وسمح بإدراك كيفية انتقال العالم الكيائي إلى العالم البيولوجي ، وفسر تطور الكائنات الحية .

٣ — نظرية التطور عند دارون التي هدمت الحاجز الميتافيزيقي بين مختلف الأنواع من ناحية ، وبين الإنسان وبقية الطبيعة من ناحية أخرى .

« وكان من اللازم لكي يصل الفكر إلى إدراك المدلول الكامل لهذه المكتشفات أن تتوفر له بذرة المنهج الجدلي ( لعلهم يقصدون بذلك الإشارة إلى هيغل ) ، ثم كان من اللازم أن توجد عبقرية ماركس وإنجلز »<sup>(٣)</sup> .

٣٥٢ — وعلى الرغم من أن إنجلز ذكر فعلا هذه المكتشفات الثلاثة ، إلا أنه

Fundamentals of Marxism — "Leninism". p. 77.

Science, Man, and Society. p. 35.

G. Politzer. op. cit. p. 155.

(١)

(٢)

(٣)

كان يذكرها دائماً على أنها شواهد وأدلة على صحة الجدل الهيجلي . وقد كتب وهو يتتبع المكتشفات العلمية الجديدة إلى ماركس يرجوه أن يرسل له فلسفة الطبيعة هيجل لأنه يريد أن يتأكد مما إذا كان هيجل قد لمح بفراسسته المعتادة شيئاً من هذه المكتشفات . ويقول في نفس الرسالة إنه لو عاش هيجل الآن وأراد أن يكتب فلسفة الطبيعة من جديد : « فسوف نهال عليه الحقائق من كل صوب »<sup>(١)</sup> . . .  
والحق أن إنجاز كان يهتز طرباً كلما ظهر اكتشاف جديد لأنه يعد دليلاً جديداً على صدق القوانين الهيجلية . وكان يعتبر التقدم العلمي دفعة قوية لتطبيق الجدل الهيجلي في شتى المجالات ، ولذا فإن النتائج العلمية الجديدة لا بد أن يسرها هيجل لو امتد به الأجل .<sup>(٢)</sup> .

فإنجاز لم يخطر بباله قط ما يدعيه الماركسيون اليوم من أن المكتشفات العلمية هي التي مكنت الماركسية « من استخلاص المنهج الجدل » . وإنما نراه على العكس من ذلك تماماً حين يتحدث عن اكتشاف الخلية يقول : « . . . الخلية هي الوجود بالذات عند هيجل ، وتطورها يتم بالضبط وفقاً للعملية الهيجلية التي تنتهي أخيراً بالفكرة ، أعني بالكائن الحي الجزئي المكتمل »<sup>(٣)</sup> . ويقول ماركس عن اكتشاف الطاقة : « . . . هناك نتيجة أخرى سوف يسرها هيجل العجوز وهي ترابط القوى في علم الطبيعة ، أو القانون الذي تتحول بواسطته القوى الآلية — تحت ظروف معينة — إلى حرارة وضوء ، وتتحول الطاقة الكيميائية إلى كهرباء والكهرباء إلى مغناطيسية . . . »<sup>(٤)</sup> .

وحين يتحدث عن نظرية التطور يقول : « إن نظرية التطور عند دارون تعد بمثابة البرهان العملي على تفسير هيجل للرابطة الداخلية بين الضرورة والصدفة . . . »<sup>(٥)</sup> . بل نراه يذهب فضلاً عن ذلك إلى القول بأن الفسيولوجيا لا يمكن أن تكون علماً ما لم تأخذ بفكرة هيجل التي ترى أن الموت عنصر ضروري

(١) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 109.

(٢) نفس المرجع السابق . وانظر الأمثلة التي يسوقها على ذلك في جدل الطبيعة (٨٧) .

(٣) Ibid. (٤)

(٥) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 401.

وعامل جوهرى للحياة ، وأن « سلب » الحياة موجود أساساً في الحياة نفسها ، وبالتالي فلا يمكن التفكير في الحياة إلا من حيث علاقتها الضرورية بالموت الذى تحمل في جوفها بذرته .

٣٥٣ - لم يقل إنجلز - إذن - أنه استخلص فكرة التناقض أو غيرها من الأفكار الجدلية من دراسته « للعلوم الطبيعية » أو « العلاقات الاجتماعية » أو « نشاط الإنسان العقلى » ولم يزعم قط أن هذه المجالات هى التى مكنته من وضع القوانين العامة « للجدل الماركسى » بل لم يدع أصلاً أنه وضع أية قوانين للجدل<sup>(١)</sup> . وإنما نراه على العكس يسمى هذه القوانين دائماً باسم « القوانين الهيجلية » وكل ما كان يرحوه أن تتيح له الظروف أن يقوم بمحاولة جاده وكاملة لتطبيق الجدل الهيجلى في ميدان هذه العلوم الطبيعية . وهذا واضح من الرسائل المتبادلة بينه وبين ماركس لا سيما منذ عام ١٨٧٣ وهو العام الذى كتب فيه إلى ماركس يبدى هذه الرغبة ، ويعرض عليه « بعض الأفكار الجدلية عن العلوم الطبيعية ، راودتني وأنا جالس في فراشى هذا الصباح . . . »<sup>(٢)</sup> . وظلت هذه الأمنية تعتمل في نفسه دون أن يتمكن قط من تحقيقها ، وإنما ظلت كتاباته في هذا الموضوع مجرد تخطيطات مبدئية ، ومسودات متفرقة لا يضمها كتاب منظم . وعلى الرغم من أنها جمعت ونشرت أخيراً لكنها - لسوء الطالع - لم تر النور إلا في عام ١٩٢٥ أى بعد وفاته بثلاثين عاماً ، حين نشرت تلك المخطوطات التى تمثل محاولات إنجلز لتطبيق الجدل الهيجلى في ميدان العلوم الطبيعية تحت عنوان « جدل الطبيعة » . وسوف نعود إلى تحليلها في نهاية هذا الفصل .

والحق أن الباحث ليعجب أشد العجب حين يقرأ لبعض الماركسيين قوهم إن الماركسية استخلصت الجدل من ميدان العلوم الطبيعية وغير الطبيعية ، في الوقت الذى يقول فيه لينين - مثلاً - عن مقولة السببية عند هيجل « إنه على الرغم من طابعها

(١) تجدر الإشارة إلى أن إنجلز لم يكن يعتقد أن هيجل « وضع » قوانين الجدل ، لأنه ليس في قدرة الإنسان أن « يضع » مثل هذه القوانين الموضوعية ، لكن هيجل « اكتشفها فحسب » كما يكتشف العلماء قوانين الطبيعة تماماً ، وتلك نفسها فكرة هيجلية . قارن فقرة ١٤٩ من هذا البحث .

الداخلي المثالي فإنها تشير إشارة عميقة إلى الأسباب التاريخية للحوادث ، فقد وضع هيغل التاريخ وضعاً تاماً تحت مقولة السببية ، ثم فهم السببية أعمق وأخصب آلاف المرات من فهم الكثرة الغالبة من « علماء هذه الأيام » . . . (١) . دع عنك علماء القرن الماضي . بل يذهب « إنجلز » إلى القول بأن القوانين الهيجلية هي التي أتاحت لمندليف – الذي طبقها دون أن يشعر أن يضع الجدول الدوري الشهير الذي ارتبط باسمه ، وهو الجدول الذي صنف فيه العناصر الكيميائية ورتبها ترتيباً تصاعدياً من أخفها – الأيدروجين إلى أثقلها – اليورانيوم (٢) .

٣٥٤ – نحن إذن نعارض تلك المحاولات الغريبة التي تنحو بالفلسفة منحاً حزبياً وسياسياً خالصاً ، فتطابق على الجدول الهيجلي اسم « الجدول الماركسي » ، وعلى مقولات هذا الجدول اسم « المقولات الماركسية » ، وتجاهد ما وسعها الحيلة لكي تختم هذا الجدول بخاتم « الماركسية – اللينينية » . حتى اختفت تلك العبارات الأمنية التي لم تكن تعرض لفكرة من الأفكار الجدلية – بالغا ما بلغت بساطتها – إلا وتردها إلى صاحبها كأن يقول لينين مثلاً « الجدول كما شرحه هيغل يتضمن عنصر النسبية والشك ، ولكنه لا يمكن أن يُردَّ إليهما . . . » (٣) . أما الآن فقد حل محلها عبارات تثير من الرثاء والإشفاق ، قدر ما تثير من السخرية والامتعاض ، فهذا واحد من الماركسيين يعرض لنفس الفكرة البسيطة وبنفس الصيغة لكنه يقول بنغمة حزبية واضحة : « يعلمنا لينين أن الجدول يتضمن عنصر الشك ، لكنه لا يمكن أن يرد إليه . . . » (٤) . ولقد كان لينين لا يذكر جدول هيغل إلا بقوله « ذلك الجدول الهيجلي العظيم . . . » (٥) . ويصفه بأنه « أعظم ما أنجزته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . . . » ويرى أن الدنيا بأسرها تسير وفقاً لإيقاعه الذي لا يفلت من قبضته القوية شيء لا في العالم المادي ولا في

V. Lenin : Coll. Works. Vol. 38. p. 160. (١)

F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 90. (٢)

V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 135. (٣)

O. Yakhot : "Dialectical Materialism". p. 115. (٤)

V. Lenin : Selected Works Vol. I. p. 467 & Marx. Engels Marxism. p. 134. (٥)

العالم الروحي ، حتى إن الخلافات التي تقع للرفاق داخل الحزب الشيوعي نفسه لا يفسرها تفسيراً صحيحاً ، ولا يلتقي عليها الضوء الساطع إلا ذلك الجدل الهيجلي العظيم : « إذ ليس الشوفان وحده هو الذي ينبت وفقاً لإيقاع المنهج الهيجلي ، بل إن الاشتراكيين الديمقراطيين الروس أنفسهم لا يقتلون إلا تبعاً لهذا المنهج نفسه . . . »<sup>(١)</sup> .

وهو ينظر إليه دائماً في إكبار وإجلال يفوقان الحد . ومن كان في شك من ذلك فليقرأ كتابه الموسوم باسم « المذكرات الفلسفية » وهي في معظمها تعليقات وشروح على مؤلفات هيجل لا سيما المنطق الكبير - وسوف يلتقي في صفحات لا حصر لها بعبارات الاستحسان والتقدير والإعجاب ، يكتبها لينين - من فرط انفعاله - بأربع لغات مختلفة . ويمكن للباحث أن يقارن ذلك بالافتتاح الجديدة التي تقول : « الجدل المادى الماركسي هو أعظم وأشمل وأخصب نظرية للتطور والحركة ، إنه تلخيص للمعرفة البشرية عبر القرون الكثيرة الماضية ، وهو تجميع لمعطيات لا حد لها من العمل الاجتماعي . . . »<sup>(٢)</sup> .

٣٥٥ - إذا كنا نعارض تلك المحاولات المذهبية الغربية التي لا بد أن ماركس يبتأ منها لو ظهرت في حياته ، كما تبتأ من قبل من « الماركسيين » الفرنسيين في نهاية سبعينات القرن الماضي حين قال « إن كل ما أعرفه هو أنني لست ماركسياً »<sup>(٣)</sup> . والتي لا بد أن يقول عنها إنجلز كما قال من قبل : « إن أغرب النفايات تأتي من هؤلاء الماركسيين »<sup>(٤)</sup> . - أقول إذا كنا نعارض تلك المحاولات اليائسة ، فإننا نعارض معها تلك العبارات المطاوعة التي تقول إن الماركسية « تأثرت » بالجدل الهيجلي ، كما تأثرت بمادية فويرباخ ، وذلك لسببين : الأول أن الماركسية لم تتأثر بمنطق هيجل ، وإنما نقلت عنه نصاً وروحاً ، دون أن تضيف إلى الجدل الهيجلي إضافة واحدة حتى إنه لا يجوز أن يقال إن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسي » ، وإنما أدق تعبير لاستخدام الماركسية للجدل الهيجلي هو ذلك الذي جاء على لسان

Fundamentals; p. 59.

(٢)

Ibid. p. 467.

(١)

K. Marx &amp; F. Engels : Selected Works. Vol. 2. p. 486.

(٣)

Ibid. p. 490. &amp; Select. Correspon. p. 419.

(٤)

لينين في دعوته للرفاق للانتظام في جماعة تحمل اسم «الأصدقاء الماديين للجدل الهيجلي» .

وثانياً : لأن الأثر الهيجلي على الماركسية بصفة عامة لا يمكن أن يوضع في صف واحد مع أى أثر آخر ، وعلى ذلك فن الضلال أن نقرن أثر هيجل بأثر فويرباخ . إذ فضلاً عن أن ماديات فويرباخ قد خرجت من أحشاء المذهب الهيجلي نفسه ، فإنها — ويغير الجدل الهيجلي لا وزن لها ، ولا هي مما تميز الماركسية عن غيرها من الفلسفات المادية ، لكن العكس غير صحيح . ذلك لأن المذهب المادى قديم قدم الفلسفة ذاتها ، وصوره كثيرة ومتعددة ، والتفسير المادى للعالم كان شائعاً — قبل فويرباخ نفسه — في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أن الماركسية رفضته لأنه كان تفسيراً مادياً ميكانيكياً بحتاً . أما المنهج الجدلى كما عرضه هيجل فهو منهج فريد في نوعه كما يقول فيندلى . ودراسة صورة الفكر ومقولاته هي كما يقول إنجلز «عمل لم يضطلع به أحد منذ أرسطو غير هيجل» . ومن هنا فإن ما يميز الماركسية أساساً عن غيرها من الفلسفات المادية السابقة هو إضافتها الجدل الهيجلي إلى المفهوم المادى عن الطبيعة والعالم . وباختصار لو لم يظهر «فويرباخ» في تاريخ الفلسفة لكان من الممكن للماركسية أن تعثر على التصور المادى من الفلسفات المادية الأخرى في حين أنه «لولا هيجل لما كانت هناك اشتراكية علمية» . . . . ومن هنا قال إنجلز بحق «إن الدراسات الشاملة التي قام بها هيجل ، وتجميعه العقلى للعلوم الطبيعية ، هو عمل أعظم بكثير جداً من كل السخافات المادية مجتمعة . . .» (١) . فن الضلال إذن أن يقال في عبارات واسعة فضفاضة إن الماركسية تأثرت بهيجل ، كما تأثرت بفويرباخ ، كما تأثرت بهذا الفيلسوف أو ذاك ، بل لقد بلغ التميع الأثر الهيجلي حداً جعل بعض الكتاب يربط بين أفلاطون وهيجل من حيث إنهما معاً «جدليان» وهما معاً «مثاليان موضوعيان» ولا مانع من أن يلحق بهما ليبنتز «بمثاليته الموضوعية» فهم جميعاً قد سلموا بوجود أساس روحى موضوعى متميز عن الوعى البشرى ومستقل عنه (٢) . وهم جميعاً يمثلون «خلفية» تاريخية تأثرت بها الماركسية . صحيح أن الماركسية تأثرت

F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 273.

Fundamentals of Marxism — Leninism. p. 41.

(١)

(٢)

بفويرباخ هذا أمر لا شك فيه ، لكن أثر فويرباخ لا يعادل ذرة من الأثر الهيجلي ، وإنا لنجد ماركس يعبر عن هذه الفكرة نفسها حين يعرض للمقارنة بين هيجل المثالي وفويرباخ المادى فيقول : « إن فويرباخ ليتضاءل إذا ما قورن بهيجل . . . »<sup>(١)</sup> وكل جدارة فويرباخ - في رأيه - هو أنه فسر هيجل تفسيراً مادياً من وجهة نظر هيجل نفسه .

### ثانياً - ماركس « يقلب » الجدل الهيجلي

#### التفسير الصحيح لهذه العبارة . .

٣٥٦ - بقي علينا بعد ذلك أن نناقش عبارات ماركس التي استندت إليها بعض هذه المحاولات حين راحت تزعم أن هناك جدلاً ماركسياً غير الجدل الهيجلي المعروف .

ولعل أشهر عبارة قالها ماركس في هذا الصدد تلك التي ساقها في الطبعة الثانية من الجزء الأول من رأس المال حين قال : « إن منهجى الجدل لا يختلف في أساسه عن منهج هيجل فحسب ، بل هو مضاد له تماماً . . . فقد كان الجدل الهيجلي يقف على رأسه . . . »<sup>(٢)</sup> فجعلنا الرأس إلى أعلى ، أو بتعبير أدق أقمناه على قدميه . . . »<sup>(٣)</sup> . تلك هي العبارة المشهورة التي ترددت آلاف المرات - ترديداً ببغاوياً في الأعم الأغلب - حتى ليندر أن يخلو منها كتاب يرد فيه ذكر للجدل الماركسى ، بل لا بد أن نطالعها في فاتحة كل كتاب وكأنها بديهية لا يجوز الشك فيها ؛ فهي - مثلاً - العبارة التي أردفها ستالين في الحال بعد أن أصدر حكمه القاطع بأن « جدل ماركس وإنجاز ليس هو نفسه جدل هيجل » ، وهي أيضاً العبارة التي استنتج منها غيره أن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » الذي يخالف إلى حد كبير الجدل الهيجلي الذي كان يقف على رأسه .

K. Marx : "The Poverty of Philosophy". p. 186.

(١)

K. Marx : "Capital". Vol. I. p. 19.

(٢)

K. Marx & F. Engels : Selected Works. Vol. 2. p. 386.

(٣)

٣٥٧ - والغريب أن نجد الكتاب الماركسيين يأخذون بهذه العبارة أخذ الوثائق من صدق دعواه فهي واضحة بذاتها لا تحتاج إلى أدنى مناقشة ، مما يدل على أنهم يخلطون خلطاً واضحاً بين مثالية هيغل ومادية ماركس - وهما موضع المقارنة في العبارة السابقة - من ناحية وبين المنهج الجدلي الهيجلي الذي استخدمه كل من الفيلسوفين من ناحية أخرى ، فتراهم يتصورون - خطأً - أنه ما دام التعارض واضحاً بهذا الشكل بين الهيجلية والماركسية من حيث المفهوم الفلسفي للعالم عند كل منهما ، فلا بد أن يستتبع ذلك بالضرورة اختلافاً في المنهج ، أى لا بد أن يكون الجدلي الماركسي بدوره عكس المنهج الهيجلي على طول الخط . دون أن يحاول أحدهم أن يقف لحظة واحدة ليسأل نفسه مثلاً : كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة إذا ما أخذت بحرفيتها - وبين ما يسهبون في شرحه وتحليله تحت عناوين « الجدلي الماركسي » و « المقولات الماركسية » . . . إلخ . . . ؟ .

والحق إن هذا الخلط لم يقتصر على الماركسيين ، وإنما تعداهم إلى غيرهم من النقاد الذين حملوا هذه العبارات أكثر مما تحتمل . يقول « سيدنى هوك » في هذا المعنى : « إن استخدام ماركس للجدل ظل غامضاً عند معظم النقاد ، لأنهم لم يعرفوا السبيل الصحيح لفهمه ، فتلقفوا العبارات المجازية عن قلب المنهج الجدلي الهيجلي رأساً على عقب ، وأخذوا بحرفيتها . كما لو كان من الممكن جداً أن يدرس المنهج بالطريقة التي نتفحص بها ظهر بعير . . . »<sup>(١)</sup> . فنديره ذات اليمين تارة ، وذات اليسار تارة أخرى كما نشاء .

٣٥٨ - وحتى تتمكن من فهم المغزى الحقيقي لهذه العبارة وأمثالها ، يجب أن نضع في اعتبارنا أربع ملاحظات هامة هي :

أولاً : أن ماركس كان مادياً ، ومن ثم بدأ بداية تخالف تماماً البداية الهيجلية ، وتلك نقطة هامة وهي في الحقيقة المصدر الأساسي للخلط وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

ثانياً : أن ماركس كان ملحداً بعنف ، ومن ثم فقد كان يحمل في نفسه

كراهية شديدة للاهوت ولكل ما هو فوق الحس ، وليس ذلك مما يعنيننا في حد ذاته ، لكن الذى يعنيننا منه ، هو أنه ربط بين اللاهوت المسيحى والمثالية الهيجلية : « فرأى فى مذهب هيجل المثالى إله المسيحية الغربية . . » (١) . ويبدو أنه فهم — كما فهم غيره — وصف هيجل للمنطق بأنه يعرض لنا الله فى ماهيته الأزلية قبل أن يخلق الطبيعة والروح المتناهى — بمعناها الحرفى ( ولقد سبق أن ذكرنا أن هيجل لم يكن يعنى ذلك قط فقرة رقم ٥ من هذا البحث ) . ومن هنا فقد رأى ماركس أن جوهر فلسفة هيجل المثالية ليس شيئاً غير « العرض النظرى للعقيدة المسيحية . . . » (٢) . مع أن خيطاً أحمر من إلحاد برومثيوس — على حد تعبير هوك — كان يسرى فى كل كتاباته الفلسفية ، حتى إنه اتخذ من عبارة اسخيلوس — التى ذكرها على لسان برومثيوس — شعاراً للبحث الذى تقدم به لنيل الدكتوراه وهى : « . . فى كلمة واحدة — إني أكره جميع الآلهة . . » (٣) . ولهذا كان ينفر بشدة حين يرد فى منطق هيجل ذكر المطلق أو « الله » أو غيرها من الأفكار التى تدخل أساساً ضمن مذهبه المثالى (٤) . ولقد عبر لينين عن هذا المعنى نفسه حين قال إن اللوحة التى يقدمها لنا منطق هيجل عن العالم تكون جلية حقاً ورائعة فعلاً لو أننا أسقطنا منها « الله » و « المطلق » (٥) .

ثالثاً : أنه على الرغم من أن ماركس كان يسلم بأن الجدل الهيجلى هو الصورة الوحيدة لجميع أنواع الجدل ، إلا أنه كان يعيب على هيجل تطبيقه المثالى لهذا الجدل . بالإضافة إلى أنه كان يؤمن بأن حياة المنهج تكمن فى تطبيقه ، وفى هذا التطبيق وحده يمكن أن يكون له معنى ، وفيه أيضاً تظهر قيمته الحقيقية . ولهذا ذهب إنجلز إلى أنهم يفترون عن هيجل بأنه فى الوقت الذى شرح فيه هيجل أفكاره فى كلمات فإنهم طبقوها بالتفصيل فى كل الميادين ، يقول فى هذا المعنى : « إن الفكرة الأساسية الكبرى التى ترى أن العالم يجب ألا ينظر إليه على أنه مجموعة من

K. Marx : The Hol. Fam. p. (٢) Ibid. p. 18. (١)

S. Hook : op. cit. p. 18. (٣)

(٤) قارن أيضاً تعليقات لينين الماثلة فى مذكراته الفلسفية وهو يلخص منطق هيجل « يا لهذا الإله

التص ، سرعان ما تتكرر أساريه حين يذكر الوجود الفعل . ص ١٤٨ وقارن ص ٢٣٤ .

V. Lenin : Collected Works. Vol. 38. p. 147. (٥)

الأشياء الجاهزة وإنما على أنه مجموعة من العمليات ، قد تشربها الوعي بعمق لا سيما منذ عصر هيجل بحيث لا سبيل إلى إنكارها الآن . غير أن الاعتراف بهذه الفكرة الأساسية في كلمات وتطبيقاتها على الواقع بالتفصيل ، وعلى كل ميدان من ميادين البحث ، هما أمران مختلفان أتم الاختلاف . . « (١) .

رابعاً : إن هيجل كان يوحد بين المنهج الجدلي ومذهبه المثالي ويربط بينهما برباط وثيق وقد سبق أن ذكرنا قوله : « إن المنهج لا ينفصل عن موضوعه ، إنه المضمون في ذاته وما يكمن في هذا المضمون من جدل هو الذى يحركه . . » (فقرة ٦ من هذا البحث) . والماركسية نفسها - كما سنشير بعد قليل - تسير هيجل في ذلك فتوحد بين المنهج الجدلي والمذهب المادى ، وترى أنهما معاً يشكلان وحدة عضوية لا تنقسم . غير أنها قبل أن تتمكن من هذا القول ، كان عليها أولاً أن تقوم بعملية أخرى هى فصل الجدل الهيجلى عن المذهب ، وهذا ما حاول ماركس أن يقوم به .

٣٥٩ - على ضوء هذه الملاحظات الأربعة نستطيع أن نفهم في يسر عبارة ماركس السابقة وغيرها من العبارات المشابهة ، وأن نضعها وضعها الصحيح ، فلا يختلط علينا الأمر فنظن أن معارضة ماركس لمثالية هيجل تعنى أيضاً معارضة المنهج الماركسى للجدل الهيجلى .

إن نقطة الخلاف الرئيسية بين هيجل وماركس تكمن أساساً في تصور كل منهما للكون أو بدقة أكثر في تحديد كل منهما للعلاقة بين الفكر والوجود ، وأيهما يسبق الآخر منطقيًا : هيجل يرى أن الفكر هو الشرط الأساسى وهو المبدأ الأول للكون ، وهو الماهية الخالصة للعالم الواقعى وبالتالي فلا بد أن نبدأ من الفكر الخالص لنسير منه إلى الطبيعة كما فعل هو نفسه في المذهب ، في حين أن ماركس يرفض هذه النظرة المثالية ويرى أن الطبيعة هى الأساس الأول وهى الشرط المنطقى لوجود الفكر والحياة الروحية بأسرها (٢) . ونقطة الخلاف هذه لا تمس المنهج

لا من قريب ولا من بعيد . فأياً ما كانت نقطة البدء ، وأياً ما كان موضوع الفلسفة ، وأياً ما كان تصورهما الفلسفي عن العالم فهما معاً متفقان في أن طريق السير الصحيح ليس شيئاً آخر غير الطريق الجدلي المرصوف بالمقولات الهيجلية . فاركس كان يؤمن مع هيجل بأن المنهج الوحيد الذي ينبغي على الفلسفة أن تأخذ به هو المنهج الجدلي الهيجلي . كما كان يتفق معه تماماً في رفض المنهج الميتافيزيقي : منهج الاستقرار والسكون ، والهوية المجردة ، منهج النظرة المحدودة الضيقة ، وحيدة الجانب فقيرة المضمون ، بل كان يسلم بكل ما قاله هيجل عن المنهج الميتافيزيقي<sup>(١)</sup> .

المنهج الذي يعارضه كل من هيجل وماركس - إذن - هو المنهج الميتافيزيقي ، أما المنهج الجدلي الهيجلي فهما متفقان على أنه المنهج الوحيد الذي يكشف عن الحقيقة ، والسبيل الوحيد أمام الفلسفة لكي تتمكن من دراسة العالم دراسة دقيقة وأن تصل إلى المعرفة اليقينية . لكنهما يختلفان بعد ذلك في « النظرة الفلسفية » إلى الكون ، أو في المفهوم الفلسفي عن العالم ، وبديهي أن يؤدي ذلك إلى اختلاف في اتجاه عبور الطريق . هيجل يبدأ من الفكر وماركس يبدأ من المادة ، لكن الطريق هو هو لم يتغير . ولهذا فإن انفصال ماركس عن الهيجلية لم يكن نتيجة لاختلاف في المنهج ، وإنما جاء نتيجة لاختلاف وجهة نظرها عن العالم . يقول إنجلز مفسراً

« الحقيقة الكامنة وراء المظاهر العابرة الزائلة التي نسميها بالوقائع المباشرة. ولقد اقرب « لينين » نفسه من هذا التفسير حين قال إن المكتشفات العلمية الأخيرة تزيل الحدود التي نعرفها عن « المادة » ، فقد كان آخر ما عرفناه عنها أنها « ذرة » ، وأصبح ما نعرفه عنها اليوم أنها « إليكترون » وغداً سوف يزول ذلك أيضاً ( إيفانسييف ص ٥٦ ) . فالذي يبقى إذن بعد زوال هذه الوقائع التي نعرفها . . . ؟ يبقى التصور الفلسفي الذي يكمن خلف الأشياء الجزئية ، ولهذا فلم يخطئ لينين حين قال المادة « مقولة فلسفية ، تدل على حقيقة موضوعية . . » نفس المرجع السابق ص ٥٤ ويمكن أن نقارن تعريف المادة الذي يسوقه لينين بقول هيجل « المادة ليست إلا فكرة . . . » قارن فقرة ١٨٩ من هذا البحث ويمكن كذلك أن نقارن تعريف الماركسية للمادة بأنها « الحقيقة الموضوعية الموجودة في الخارج ، والمستقلة عن وعي الإنسان وإرادته » . بتعريف الفكرة الشاملة عند هيجل فهي أيضاً الحقيقة الموجودة في الخارج وجوداً موضوعياً والمستقلة عن وعي الإنسان وإرادته .

( ١ ) من المفارقات الغريبة أن تذهب الماركسية اليوم إلى القول بأن هذا المنهج الميتافيزيقي بكل مواصفاته التي ذكرها هيجل - هو منهج الفلسفة المثالية ، وهو المنهج الوحيد الذي يناسب تماماً جوهر تلك الفلسفة « الضيقة الأفق ، وحيدة الجانب . . . إلخ . إلخ » . وأن المنهج الجدلي هو وحده منهج الفلسفة المادية .

سبب هذا الانفصال : « لقد كان انفصالنا عن الفلسفة الهيجلية يرجع أساساً إلى العودة إلى وجهة النظر المادية . . أعني التحرر من التصور المثالي للعالم . . »<sup>(١)</sup> . وهذا التصور المثالي للعالم هو الذي ظلت الماركسية - ولا تزال - تحاربه ، بنفس القوة التي تدافع بها عن الجدل الهيجلي ، يقول إنجلز : « نحن لا ندافع قط عن وجهة النظر الهيجلية التي تتخذ من الروح أو العقل أو الفكرة نقطة بدء ، وتعتبر العالم الواقعي نسخة من هذه الفكرة . ولقد سبقنا فويرباخ ورفضها . . . لكن بعد ذلك كله يبقى الجدل الهيجلي . . »<sup>(٢)</sup> . بل إن جدارة ماركس ترجع - فيما يقول إنجلز - إلى أنه كان أول من استطاع أن يبرز المنهج الجدلي الذي « طواه النسيان » ، ويبين صلته بالجدل الهيجلي ، ويطبقه في كتابه رأس المال على وقائع علم تجريبي هو علم الاقتصاد السياسي .

٣٦٠ - ومعنى ذلك أن ما يجعل الماركسية « تضاد الهيجلية تماماً » هو ماديتها وليس منهجها . ولقد شرح لينين عبارة ماركس السابقة فقال « كتب ماركس مقدسته للطبعة الثانية من المجلد الأول من رأس المال ، وفيها يظهر بوضوح قاطع معارضة مذهبه المادي ، للمذهب المثالي عند هيجل ، وهو الذي يعد من أعظم المذاهب المثالية تطويراً واتساقاً . . »<sup>(٣)</sup> وهذا واضح تماماً حتى من عبارة ماركس السابقة التي تبدو في ظاهرها مقابلة بين المنهجين لكنها في الحقيقة تقابل بين فلسفتين ، مادية الماركسية ومثالية الهيجلية . يقول ماركس في نفس العبارة مفسراً سبب التعارض « . . . إن حركة الفكر التي يجعلها هيجل ذاتاً مستقلة ، ويسميتها بالفكرة - هي عنده صانعة الواقع ، وليس هذا الواقع إلا الصورة الخارجية الظاهرية للفكر ؛ أما عندي فحركة الفكر ليست - على العكس - إلا انعكاساً للواقع . . »<sup>(٤)</sup> . وليس في هذا حديث عن المنهج وإنما مقابلة بين التصور الفلسفي للعلاقة بين الفكر والوجود عند كل من الفلسفة المثالية والفلسفة المادية . هيجل يجعل الفكر أساساً أولياً عليه يعتمد الوجود بأسره ، أما ماركس فيطالب بأن تقلب

(١) ك . ماركس ، ف . إنجلز : المؤلفات المختارة . المجلد الثاني ص ٣٨٦ .

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 64-5 & Anti-Duhring. p. 457-8 . .

(٣) V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 352.

(٤) K. Marx : Capital : Vol. I. p. 19.

الوضع بحيث يكون الأساس هو مادة الواقع الصلبة . ولقد أوضح إنجلز نقطة التعارض هذه بين الفلسفتين بإسهاب وتفصيل في مقاله عن « فويرباخ » حين تحدث عن نشأة الماركسية « كتيار خصب » خرج من انحلال المدرسة الهيجلية ، وكيف أنهم شقوا طريقاً مخالفاً للهيجلية في النظر إلى العالم : « ووطننا العزم على التضحية بكل مثالي لا يتفق معاً في النظر إلى الواقع كما هو لا بشكل خيالي . . . » (١) . وهذا هو أساس الخلاف مع الهيجلية « . . . غير أن هيجل لم يستبعد تماماً بل على العكس لقد اتخذنا نقطة البدء من الجانب الثوري في فلسفته وأعنى به منهجه الجدل . . . » .

فنهج هذا التيار المادى الجديدي الذي ارتبط باسم ماركس هو إذن الجانب الثوري في فلسفة هيجل أو منهجه الجدل . صحيح أن إنجلز يذكر في نفس السياق أن المنهج الجدل في صورته الهيجلية لم يكن يصلح الاستعمال ، لكن يجب ألا نخدعنا هذه الكلمات فنظن أنها تعني أنهم استعاضوا عن الجدل الهيجلي بمنهج جدلي جديد . إذ المقصود بالصورة الهيجلية هنا هو التطبيق الهيجلي المثالي لهذا المنهج وفقاً لنقطة البدء المثالية عند هيجل يقول إنجلز موضحاً ذلك « . . . فالتطور الجدل ( عند هيجل ) الذي يظهر في الطبيعة والتاريخ ، هو صورة من الحركة الذاتية من الفكرة الشاملة ، وهي الفكرة الخالدة التي لا يعلم أحد مكانها ، ولكنها - على كل حال - مستقلة عن العقل البشرى . . . وهذه الأيديولوجية المعكوسة هي التي يجب استبعادها . . . وبهذه الطريقة عاد الجانب الثوري في فلسفة هيجل إلى الظهور من جديد ، متحرراً في نفس الوقت من الإطار المثالي الذي منع هيجل من تطبيق منهجه تطبيقاً متسقاً . . . » (٢) .

وهكذا يتضح لنا من عبارة إنجلز هذه أن ما تعارضه الماركسية هو « الأيديولوجية المعكوسة » أي المثالية الهيجلية التي تضع الفكر قبل الوجود ، وتجعله المبتدأ وكل ما في الكون حديث عنه وخبر . أما الجدل الهيجلي أو الجانب الثوري في فلسفته فهو ما أخذته الماركسية دون أن « قلبه » أو « تعكسه » أو « تخالفه » . وما أشبه عبارة ماركس السابقة عن « قلب المنهج الهيجلي » يقول إنجلز : « إن مذهب هيجل

هو نفسه المذهب المادى فى وضع مقلوب . . .» (١) . فالحديث فى كل من العبارتين ينصب على المذهب والتصوير الفلسفى للعالم لا على المنهج ، لأن المنهج الفلسفتين واحد « هو الجانب الثورى عند هيكل ، أو الجدل الهيجلى » .

٣٦١ - من الطبيعى بعد ما تقدم أن نلتقى بهذا السؤال : إن صح وكان ماركس يعارض فى عبارته السابقة المثالية الهيجلية دون منهجها ، فلم لم يذكر ذلك صراحة . . . ؟ ولماذا قابل إذن بين منهجه وبين منهج هيكل . . . ؟

الحق أن ماركس فى كل ما كتب كان يتقد الجانب المالى من فلسفة هيكل فى صراحة ووضوح وكثيراً ما كان يسمى المذهب الهيجلى « بالإطار المالى » أو « الغلاف الصوفى » ويرى أنه لا بد من أن ننزع هذا الإطار حتى تظهر « النواة العقلية » واضحة وهو يقصد بها المنطق، بل إن ما كان ماركس يجاهد فى مسيله هو أن يتمكن من فصل المنطق الهيجلى عن بقية المذهب لكى يطبقه بعد ذلك تطبيقاً جديداً على علم الاقتصاد وتاريخ المجتمع البشرى . وهذا ما قاله إنجلز وهو يصف الدور الذى قاما به معاً دون بقية الهيجليين اليساريين : « إننا كلينا - ماركس وأنا - كنا وحدنا تقريباً اللذين عملا لإنقاذ الجدل الواعى من المثالية الألمانية (أى الهيجلية) وذلك بإدخاله فى المفهوم المادى عن الطبيعة والتاريخ . . . » (٢) . وهذا واضح كذلك فى كل ما وجهه إنجلز من نقد إلى هيكل حيث كان ينصب نقده أساساً على مثالية هيكل أو ما غلف جدله من صوفية ، ويرى أننا يجب أن ننزع عنه هذه الصوفية ليتضح الجدل الهيجلى فى قوته الحقيقية . يقول مثلاً : « إن الكون عنده لا بد أن يتطابق - طوعاً أو كرهاً - مع نسق الفكر الذى هو نفسه ليس إلا نتاجاً لفترة محددة من تطور الفكر البشرى . ولو أننا قلبنا الوضع لصار كل شىء بسيطاً ، ولأصبحت القوانين الجدلية التى وصلت إلى أقصى درجة من الصوفية فى فلسفة هيكل المثالية - واضحة ووضوح النهار . . . » (٣) :

(١) Selected Works. Vol. 2. p. 372 & Lenin : Coll. Works. Vol. 38. p. 234.

(٢) F. Engels : "Anti-Duhring" p. 16.

(٣) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 83-4.

٣٦٢ - أما لماذا قابل ماركس بين منهجه ومنهج هيغل في عبارته المشورة فالسبب يرجع أساساً إلى أنه - كغيره من الهيجليين - كان يعرف تماماً أن هيغل يربط بين المنهج والمذهب برابط لا ينفصم بحيث يؤلفان معاً وحدة عضوية واحدة ، ومن هنا فقد كان ماركس في أحوال قليلة يتحدث عن منهج هيغل المقلوب وهو يقصد مذهبه ، على اعتبار أن المنهج والمذهب عنده لا ينفصلان . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الماركسية نفسها سايرت الطريقة الهيجلية في الربط بين المنهج والمذهب ، فذهبت إلى أن المنهج الجلدلي وحده يصبح بلا معنى ، والمذهب المادى وحده يتحول إلى مادية ميكانيكية « مبتذلة » . والقول بأن ماركس كان أحياناً يتحدث عن منهج هيغل وهو يعنى مذهبه يبرره سببان : الأول : توضيح ماركس نفسه في الشطر الثانى من عبارته السالفة . والثانى قول ماركس : « إن الميتافيزيقا ، بله الفلسفة كلها يمكن أن يلخصها المنهج كما يقول هيغل . . . » (١) .

وعلى ذلك فإذا كان ماركس يذهب أحياناً إلى أنه قلب المنهج الهيجلى أو أقامه على قدميه فيجب أن نفهم إن ما كان يعنيه دائماً بمثل هذه العبارات هو أنه قلب « المذهب المثالى » أو « عكس التصور للمثالى للعالم » . أو بعبارة أخرى أقامه على قدميه حين جعل من المادة الأساس الصلب ، ومن الفكر تابعاً لها . ولقد كتب ماركس في هذا المعنى إلى « كوجلمان » فى ٦ مارس سنة ١٨٦٨ يرد على نقد « دوهونج » لكتابة رأس المال فقال : « إن دوهونج يعرف تماماً أن منهجى ليس هو المنهج الهيجلى طالما أنى مادى وهيغل مثالى . إن الجلدل الهيجلى هو الصورة الأساسية لجميع ألوان الجلدل ، ولكن بعد أن ننزع عنه غلافه المثالى ، وهذا بالضبط ما يميز منهجى عن منهجه . . . » (٢)

### ثالثاً - قوانين « الجدل الماركسي » ومقولاته تؤيد هذا التفسير

٣٦٣ - ذلك هو التفسير الصحيح لعبارة ماركس عن : « قلب الجدل الهيجلي » وهو تفسير يصدق كذلك على غيرها من العبارات المماثلة : فكل نقد وجهته الماركسية إلى الهيجلية ينصب أساساً على الجانب المثالي دون المنهج ، وكل خلاف بينهما يرتد في نهاية تحليله إلى نقطة البدء . تلك مقدمة نخلص منها إلى النتيجة التالية - بذلك تكون الماركسية قد نقلت الجدل الهيجلي كما هو بنصه دون أن تقلبه ، ودون أن تضيف إليه إضافة واحدة ، وبناء عليه لا يجوز أن يقال إن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسي » الذي يقابل « الجدل الهيجلي » . وإنما هناك الاستخدام الماركسي « للجدل الهيجلي » أو التطبيق المادي « للجدل الهيجلي » . وبعبارة أخرى ليست هناك « قوانين » للجدل الماركسي غير قوانين الجدل الهيجلي ، وليست هناك « مقولات للجدل الماركسي » جديدة تختلف عن المقولات التي عرضها هيجل في المنطق . وما لم نسلم بذلك فسوف نتساءل : ما هي تلك القوانين الجديدة التي تميز الجدل الماركسي عن جدل هيجل ؟ وما هي تلك المقولات التي أتت بها الماركسية ولم يذكرها هيجل في منطق . . ؟ باختصار ما هي تلك الإضافات الجديدة التي أضافتها الماركسية للمنهج الجدل الهيجلي . . ؟ .

قد يقال إنها استخدمته استخداماً جديداً مخالفاً للاستخدام الهيجلي ، وقد يقال أيضاً إن الغاية والنتيجة من المنهج الهيجلي اختلفت في الماركسية عنها في الهيجلية ، وذلك كله صحيح لا نشك فيه لكنه لا ينصب على المنهج ذاته فقد استخدم سلم منزلي في الصعود إلى الطابق العاشر ، بينما يستخدمه غيري في الهبوط إلى الطابق الأول ، لكن ذلك لا يعني أن السلم قد اختلف في الحالتين . وقد يستخدم الطبيب نفس السلم في علاج مريض بينما يستخدمه اللصوص في الدزقة، هنا كذلك اختلفت الغاية لكن الوسيلة ظلت كما هي - يقول ماركس « لقد عارضنا الفلسفة الألمانية التي تهبط من السماء إلى الأرض وارتفعتنا نحن من الأرض إلى

السماء» . لكن طريق الصعود والهبوط كان دائماً هو هو لم يتغير في الحالتين أما ما تغير حقاً فهو « اتجاه » العبور فحسب .

ولست أدري كيف يمكن أن يكون بين الماركسية والهيكلية خلاف في المنهج ، في الوقت الذي تسلّم فيه مع هيجل بأن الطريق إلى الشرق هو نفسه الطريق إلى الغرب . . . ؟ (١) .

٣٦٤ - وأكثي يتضح هذا الذي نقوله لا بد أن نعرض في عجالة سريعة لما يسمى « بالقوانين الأساسية للجدل الماركسي » ثم نعقب عليها بعرض سريع كذلك « للمقولات الماركسية » .

### ١ - القانون الأول : التغير من الكم إلى الكيف والعكس :

التغير الذي يحدث في العالم هو انتقال من التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية جذرية والعكس - وهذا الانتقال هو القانون الجدلي الشامل الذي يعمل في جميع ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر ، ففي جميع هذه المجالات يحل الجديدي محل القديم .

وانتقال الشيء من حالة كيفية معينة إلى حالة كيفية أخرى نتيجة للتغيرات الكمية المتدرجة هو طفرة في مجال التطور ، والطفرة هي تحطيم لتدرج التغير الكمي للشيء ، أو هي الانتقال إلى كيف جديد ، أو التحول المفجئ والتغير الجذري في مجرى التطور ، ولقد كان ظهور الإنسان نفسه طفرة ، أعنى نقطة تحول جنسية في تطور العالم العضوي . والطفرة أو الانتقالات من كيف قديم إلى كيف جديد سريعة نسبياً إذا ما قورنت بالفترات السابقة التي كانت تتم فيها التغيرات الكمية المتدرجة . وهذه السرعة تختلف باختلاف طبيعة الشيء والظروف التي تحدث فيها الطفرة . وهذه الطفرة هي التي نسميها بالثورة في التغيرات الاجتماعية فالثورة أو التغير الكيفي هي نتاج ضروري لتطور التغيرات الكمية (٢) .

(١) وهي نفس الفكرة التي عبر عنها هيراقليطس قديماً في قوله : « الطريق إلى أعلى وإلى أسفل واحد ، وهو نفس الطريق . . . » شذر ٦٩ وفقاً لترقيم بيرنت .

(٢) Fundamentals of Marxism Leninism. p. 70-72 & Afanasyev op. cit. p. 105-110.

& O. Yakhot : op. cit. p. 81-90.

هذا هو باختصار شديد القانون الأول من القوانين الأساسية للجدل الماركسي ، وهو منقول بنصه عن منطق هيجل ، ولقد سبق أن عرضنا له من قبل بالتفصيل قارن (٢٠٢ - ٢٠٤) . ويمكن الآن أن نتساءل كيف وبأى معنى استطاع ماركس أن يقلب مقولة الكمية النوعية عند هيجل وهي المقولة التي جعلتها الماركسية أول قانون من قوانين الجدل . . . ؟ إن مضمون هذه المقولة كما عرضه هيجل هو أن التغيرات الكمية إذا ما وصلت إلى حد معين انقلبت إلى تغيرات كمية والعكس . . . فبأى معنى استطاعت الماركسية أن « تقلب » هذا القانون رأساً على عقب أو عقباً على رأس كما يقولون . . ؟ الحق أن ماركس لم يزعم ذلك قط ، لكنه على العكس من ذلك كان في تحليله لرأس المال ولعدل وفائض القيمة لا يشير إلى هذا القانون إلا على أنه القانون الهيجلي الذي كشف عنه هيجل فيقول مثلاً - « هنا كما هي الحال في العلوم الطبيعية يصدق القانون الذي كشفه هيجل في كتابه « المنطق » وهو أنه عند بلوغ درجة معينة تتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات في الكيف » (١) . بل ويشرح في حاشية لهذه العبارة كيف أن علم الكيمياء نفسه يؤيد هذا القانون « إن نظرية الذرة في علم الكيمياء الحديث والتي صاغها لأول مرة لوران وجرهاردت بصورة علمية لا تتركز إلا على هذا القانون » وقد أضاف إنجلز لهذه الحاشية مثلاً توضيحاً من علم الكيمياء .

## ٢ - القانون الثاني : صراع الأضداد وتداخلها .

٣٦٥ - إذا كان العالم بما فيه من ظواهر في حركة مستمرة وتغير لا ينقطع فإن سبب هذه الحركة هو التناقض الكامن في الأشياء . ومعنى ذلك أن العلة الأساسية لتطور الأشياء لا توجد خارجها ، وإنما تكمن في جوف هذه الأشياء ذاتها فالطبيعة المتناقضة هي خاصية ماهوية للأشياء . وكل ظاهرة تحوي في جوفها متناقضات متصارعة ، وصراع الأضداد هذا هو الذي يولد الحركة ويبعث التطور . ولا يمكن أن نتصور أى شكل من أشكال الحركة بدون أضداده ، فحتى الحركة الآلية البسيطة لا تتم إلا لوجود هذه الأضداد : فعل ورد فعل ، جذب ودفع ، قوة طرد مركزية وقوة جذب مركزية ، بل إن كل ذرة تتألف من ضدين من نواة مشحونة

شحنة موجبة وغلاف إلكتروني مشحون شحنة سالبة . . . إلخ. بل هناك جوانب متناقضة ذاتياً داخل عملية المعرفة نفسها، فالإنسان يستخدم مناهج متضادة ومرتبطة في دراسته للأشياء كالأستقراء والاستنباط والتحليل والتركيب . . . إلخ<sup>(١)</sup>. ومن المهم أن نعرف أن هذه الأضداد لا توجد معزولة بعضها عن بعض بل هي تكمن داخل الظاهرة الواحدة وتبرز في وحدة عضوية ولا معنى لها إذا انفصل كل منها عن الآخر بل إن عملية الفصل هذه نفسها عملية مستحيلة إلا في الخيال فحسب « فن المستحيل أن تحصل على جانب واحد من التناقض بدون الآخر ، استحالة أن تحتفظ في يدك بالتمفاحة كلها بعد أن أكات نصفها . . . »<sup>(٢)</sup>.

والماركسية ترى كما يقول ستالين « أن أشياء الطبيعة وظواهرها تحوى تناقضات داخلية لأن لها جانبيين جانباً سليماً وجانباً إيجابياً . . . ونضال هذين الجانبين هو المضمون الداخلى للحركة والتطور ، وهو المضمون الداخلى لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كمية . . . »<sup>(٣)</sup>.

هذا هو باختصار القانون الثانى من « القوانين الأساسية للجدل الماركسى » وليس فيه جديد أضافته الماركسية إلى فكرة صراع الأضداد عند هيجل ذلك الصراع الذى كان يطلق عليه اسم « مبدأ السلب » ويصفه بأنه الروح التى تبعث الحياة فى العالم المادى والروحى على السواء . وهو أيضاً صراع « باطنى » وداخلى ومجدد وهو مصدر الحركة والتطور ولنتقارن مثلاً فقرة ١٢١ من هذا البحث .

### ٣ - القانون الثالث : نفي النفي

٣٦٦ - يمكن القول بأن سير التطور كاه عبارة عن سلسلة من نفي النفي كل مرحلة تنفى سابقتها ثم تنفيها هى نفسها مرحلة ثالثة وهكذا . غير أن النفي هنا لا يعنى الفناء ، وإنما كل مرحلة « تنفى وتحتفظ » فى وقت واحد بالمرحلة السابقة فالنفي الجدى هو نفي واحتفاظ معا هدم وتطور أبعده : ولا يكون النفي جديلاً إلا إذا

V. Afanasyev : "Marxist Philosophy". p. 93.

Selected Works. Vol. 2. p. 226.

J. Stalin : op. cit. p. 9.

(١)

(٢)

(٣)

كان مصدرًا للتطور أى إذا احتفظ بالعناصر الأساسية فى المراحل السابقة ، وهذه العملية تحدث فى جميع المجالات فى الطبيعة والمجتمع والتاريخ وتاريخ الفلسفة إلخ .

إن نقي النقي يوجد بالفعل فى كل من مملكتى النبات والحيوان . بالإضافة إلى أن علم الجيولوجيا كله عبارة عن سلسلة من نقي النقي . والرياضة لا تفلت من هذا القانون خذ مثلا « ١ » فلو أننا سلبنها لكان عندنا ( ١ - ) ولو أننا عدنا من جديد ونقينا هذا النقي نفسه بأن ضربنا  $1 \times 1$  لكان عندنا : ٢ أى العدد الأصلى الموجب ولكن فى درجة أعلى . ويمكن أن نأخذ مثلا آخر من التاريخ ، فقد بدأت الحضارة بالملكية العامة غير أن هذه الملكية العامة للأرض التى كانت شائعة فى العصور البدائية أصبحت فى المراحل العليا من التطور الزراعى عائقاً للإنتاج ، وهذه ألغيت أو سلبت وتحولت بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من الحلقات الوسطى إلى ملكية خاصة . ولكن حين تطورت الزراعة من جديد إلى مرحلة أعلى أصبحت الملكية الخاصة بدورها عائقاً للإنتاج وظهرت الحاجة إلى إلغائها أو سلبها ، وكان لا بد من أن تعود الملكية العامة لا فى صورتها القديمة ، بل فى إطار جديد بحيث لا تصبح عائقاً للإنتاج ، وإنما متحررة من جميع القيود بحيث تتمكن من استغلال المكتشفات الحديثة .

مثلا آخر من الفلسفة : كانت الفلسفة القديمة مادية لكنها كانت مادية بدائية ساذجة ، ولهذا لم تستطع أن تفهم العلاقة بين العقل والمادة مع أن مثل هذا التفسير ضرورى جداً ، ولقد أدى ذلك إلى القول بسيطرة الروح على الجسد ثم التركيز على خلود الروح ومعنى ذلك أن المادية القديمة قد نفثها المثالية . لكن فى تطور الفلسفة عادت المادية من جديد إلى الظهور ونفت المثالية وتلك هى المادية الحديثة ؛ وهى نقي النقي القديم ولكنها ليست مجرد إعادة للمادية القديمة لكنها تضيف إلى الأساس الدائم للمادية القديمة كل تراث البشرية الفكرى الذى ظهر فى ألفين من السنين نتيجة لتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية؛ فالفلاسفة الآن عبارة عن إلغاء واحتفاظ فى نفس الوقت . هذا هو القانون الثالث والأخير من القوانين الأساسية للجدل الماركسى وليس فيه جديد على فكرة النقي عند هيغل وقد سبق أن عرضنا لها فى الفقرة رقم ١٤١ من هذا البحث ، والواقع أن إنجلز وهو يضرب الأمثلة السابقة

في كتابة ضد دوهرنج . كان يسمى هذا القانون دائماً باسم «قانون نفي النفي الهيجلي»<sup>(١)</sup> .

٣٦٧ - تلك هي القوانين الجدلية الثلاثة التي نلخص فيها إنجلز الجدل الهيجلي . وهي القوانين التي تتردد في كل الكتب الماركسية على أنها القوانين الأساسية للجدل الماركسي فكيف يقال إذن إنها تعارض تماماً الجدل الهيجلي . . . ؟

قد يقال في معرض الإجابة على هذا السؤال ما يلي :

أولاً : صحيح أن هذه الأفكار كلها هيكلية لكنها ظلت في منطق هيجل مجرد مقولات منطقية ولم تتخذ شكل القوانين .

ثانياً : إن هيجل استخدم مقولاته هذه استخداماً منطقياً خالصاً فجعل التطور تطوراً للعقل أو الفكر أو الروح ، ومن هنا كان صراع الأضداد عنده هو تمزق للفكر نفسه وكانت عمالية نفي النفي تحدث في جوف الفكر . وقل مثل ذلك في الانتقال من الكم إلى الكيف ، أما الماركسية فتحدثت عن تراكم رأس المال الذي يتجمع حتى يؤدي إلى انقلاب المجتمع الرأسمالي كله إلى مجتمع جديد كما شرحت صراع الطبقات وتناقضها ، وأبرزت نفي المراحل التاريخية بعضها لبعض إلخ . . .

وجوابنا على ذلك هو كما يلي :

أما أن هذه الأفكار ظلت عند هيجل مقولات ولم يطلق عليها اسم « القوانين الأساسية للجدل » فذلك راجع إلى أنه كان يحال الجدل نفسه في المنطق ولم يكن يضع له قوانين . وبمعنى آخر لو أن الماركسية حاولت أن تدرس العلاقة بين هذه القوانين بعضها وبعض لتقف على ما بينها من صلة ، فسوف تجد نفسها مضطرة إلى جمعها في سلسلة واحدة كما فعل هيجل بالضبط . وتلك هي العملية التي رفض « إنجلز » أن يخوض فيها في جدل الطبيعة<sup>(٢)</sup> . . .

F. Engels : "Anti-Duhring". p. 187.

(١)

F. Engels : "Dialectics of Nature." p. 84.

(٢)

ومن ناحية أخرى فإن القانون عند الماركسية هو الطبيعة الموضوعية العامة المشتركة بين الظواهر « فالصورة الشاملة في الطبيعة هي ما نسميه بالقانون »<sup>(١)</sup>.

أى أن القانون هو الماهية الموضوعية الأساسية التي تعبر عن الرابطة الضرورية بين الظواهر وذلك هو تعريف المقولة عند هيغل ، وإذا كان القانون الجدلي هو التعبير عن الصلة الموضوعية العامة بين القوانين الجزئية ، فإنه بالتالي التعبير الموضوعي عن الصلة بين المقولات . فالقانون الأول مثلا ليس إلا تعبيراً عن الصلة بين مقولتي الكم والكيف أى أن الماركسية هنا تقنطع شريحة من الجدل الهيجلي لتطابق عليها اسم القانون . ولهذا قال قائل منهم بحق « إنه بدون معرفة المقولات يستحيل فهم قوانين الجدل . . . »<sup>(٢)</sup> . والماركسية — مثلا ثانياً — في قانون صراع الأضداد : تكشف عن المعنى الحقيقي للمقولات المتناقضة : كالصورة والمضمون ، والضرورة والصدفة ، والإمكان والواقع . . . إلخ . ومن ناحية ثالثة فليس هناك فارق كبير بين أن يقول هيغل إن انتقال الكم إلى الكيف هو مقولة الكمية النوعية ، وأن تقول الماركسيين إنه « قانون » تحول الكم إلى الكيف . فاختلاف التسمية آيست له أهمية خاصة طالما أن المضمون واحد في الحالتين .

وفضلا عن ذلك كله فيبدو أن التسمية الهيجالية هي الأقرب إلى الدقة والصواب . ذلك لأن الماركسية « تقرر » وجود قانون دون أن تبين لنا مصدره اللهم إلا كتب هيغل . أما هيغل فهو « يستنبط » مقولة الكمية النوعية من المقولات التي سبقتها ، وبغض النظر عن نجاحه أو فشله في هذا الاستنباط ، فإنه لا يقرر « واقعة » أو « حقيقة » تقريراً تعسفياً بلا تبرير غير أنها منقولة عن كتب السابقة .

٣٦٨ — أما أن المقولات كانت منطقية عند هيغل ، فهذا أمر طبيعي طالما أنه في المنطق يعرض الصورة العقائية الخاصة للجدل ، بغض النظر عن تطبيقيه المثالي لهذه الصورة على المذهب . ومن ناحية أخرى فيجب ألا يغيب عن ذهننا ما سبق أن قلناه مراراً من أن اختلاف استخدام هيغل للجدل عن استخدام الماركسيين له يرجع أساساً إلى اختلاف المذهبين . ومن ناحية ثالثة فإنه لمن الخطأ

Ibid. p. 310.

V. Afanasyev : "Marxist Philosophy". p. 124-5.

(١)

(٢)

يمكن أن نقول إن هيغل قد اعتبر الصراع بين الأضداد صراعاً فكرياً فحسب<sup>(١)</sup>. لأن أى إنسان له أدنى دراية بهيغل يعلم - كما يقول إنجلز - « إنه استطاع في بضع مئات من الفقرات أن يقدم لنا أمثلة أخاذة للغاية للقوانين الجدلية من الطبيعة والتاريخ .. »<sup>(٢)</sup>.

والحق أن هيغل في عرضه العقلي الخالص للمقولات الجدلية في المنطق ، لم يفترض لحظة واحدة إن هذا العرض لمنطق التطور يتصل بالأمور « الروحية وحدها » أو « المسائل الغيبية » كما يحلو لبعض الماركسيين تسميتها لكنه كان يشير ويركز باستمرار على الطابع الموضوعى للمقولات ، ويشير إلى أن هذا التطور العقلي الذى يعرضه فى المنطق هو صلب الواقع وجوهر الوجود ، وماهية العالم . ولقد سبق أن ذكرنا فى عرضنا لخصائص المقولة الهيغلية أن المقولات عند هيغل هى العمود الفقري للعالم (فقرة رقم ١٢٨ - ١٣٠) . فليست هذه المقولات مجرد ماهيات خالصة ، أو أفكار مجردة ، وإلا لتعارض ذلك مع الأفكار الأساسية فى الجدل الهيغلي نفسه كالجمع بين الهوية والاختلاف ، والذاتى والموضوعى ، والمجرد والعينى ... إلخ . فهيجل يرفض الثنائية ومن هنا فهو لا يفصل بين المقولات وعالم الواقع بحيث يضع المقولات فى عالم آخر فوق السحاب ، يفصلها عن أشياء العالم هوة سحيقة ، أنها ليست مثلاً أفلاطونية تحتل عالماً علوياً خاصاً ولكنها : أمامنا مباشرة ، وفى كل لحظة ، وعلى شفاهنا دائماً وهى باختصار « قلب الأشياء ومركزها » كما سبق أن ذكرنا .

٣٦٩ - ومعنى ذلك أنه إذا كانت الماركسية قد شرحت قانون الأضداد بأمثلة عينية سواء من ميدان العلوم الطبيعية أو ميدان العلوم الاجتماعية ، فإن هيغل لم يتحدث عن أضداد الفكر فحسب ، بل شرح هذه الفكرة بأمثلة عينية بالغة

(١) من الأخطاء الفاحشة أن يقال مثلاً : « لقد تقبل ماركس فكرة التغير الهيغلية ، من ناحية أنها نتاج تصارع الأضداد ، إلا أنه رفض ما تقول به من اتخاذ الصراع سبيله فى ذهن الإنسان وحده . . . » الأستاذ/ فؤاد شبل فى تحليله لرأس المال فى العدد الأول من المجلد الخامس من « تراث الإنسانية ص ٤ . وهذا ما لم يقل به هيغل على الإطلاق ؛ بل تلك هى نقطة الضعف التى كان يأخذها على جدل زينون الايلى وسقراط وغيرهما من الجدليين القدامى . قارن مثلاً فقرة رقم ٣٦ و ٤٨ من هذا البحث .

(٢) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٨٤ .

العمق . ولم تقتصر هذه الأمثلة على الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة فحسب ، بل امتدت إلى العلاقات الاجتماعية نفسها وهذا واضح في مؤلفاته المختلفة ، فهو في ظاهريات الروح مثلاً يحلل العلاقة بين العبد والسيد ويذهب إلى أن العبد بفضل عمله ونشاطه يصل إلى الاستقلال الذاتي ، ولا يصبح موضوعاً لاستغلال الآخرين ، وإنما يصبح شخصية مستقلة تحددتها « أفعاله وإرادته » ، في حين ينقلب السيد عبداً تابعاً لمولاه . وهذا التحليل هو الذى وقفت الماركسية وغيرها من النظم الاشتراكية الأخرى تتأمله طويلاً كما يقول جان بول سارتر ، وفندلي وغيرهما (١) .

ولقد سبق أن رأيناه يضرب كثيراً من الأمثلة التجريبية للاعتماد المتبادل بين الكيف والكم وغيرهما من المقولات . فدستور الدولة وقوانينها ( أى كيفها ) يعتمد على حدودها وتعدادها ومساحتها وما إلى ذلك من أمور كمية . وتحول الماء من سائل إلى غاز هو المثل الهيجلي للتغيرات الكمية التى تنقلب إلى تغيرات فى الكيف ، وهو المثل الذى يتردد فى جميع الكتب الماركسية التى تعرض لشرح هذا القانون . ولقد سبق أن رأيناه أيضاً يتحدث عن نمو النبات من البذرة إلى الزهرة إلى الثمرة ويعتبر هذه العملية سلسلة من نفي النفي . . إلخ . فهناك باختصار مئات المثات من الأمثلة العينية والوقائع التجريبية التى قدمها هيجل ثم ترددت بعد ذلك كشرح « للقوانين الأساسية للجدل الماركسى » (٢) . .

٣٧٠ - والواقع أنه ليس المهم فى شرح الجدل أن نضرب مثلاً أو مثلين لهذا القانون أو ذاك وإنما الأهم من ذلك أن نحال هذه القوانين ونفسرها ونشرح مضمونها ، ونبين الصلة بين بعضها وبعض ، ونكشف عن مصدرها . . . باختصار أن نعرض لمنطق الجدل نفسه باعتباره منطقةً جديداً يعارض المنطق الأرسطى القديم ،

(١) انظر كتابه الوجود والعدم ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٠٣ وانظر كتاب فيندلي

السالف الذكر ص ١٠٢ .

(٢) قارن مايقوله سيدنى هوك فى كتابه سالف الذكر من أن « معظم الأمثلة التى أوضح بها إنجلز

الجدل فى الطبيعة والتي ذكرها فى كتابه « ضد دوهرنج » ، والتي شاعت جدا فى الكتابات الاشتراكية يجدها القارئ فى كتاب المنطق لهيجل . . . ص ٦٩ .

أو بمعنى أدق يشتمل هذا المنطق ويرتكز عليه ، ولكنه يتخطاه ليأتي الضوء على منطق جديد أوسع وأرحب ، وهذا ما لم يفعله أحد قط غير هيغل يقول إنجلز : « إن دراسة صور الفكر وتحديداته عملية هامة جداً ، وضرورية للغاية ، وهذا العمل لم يضطلع به أحد منذ أرسطو غير هيغل . . » (١) . فلو أن الماركسية درست الجدل الهيجلي ثم وضعت منطقاً جديداً يرتكز على هذا الجدل ، ولكنه يتخطاه ، لكانت قد أتت بشيء جديد في ميدان المنطق والجدل ، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك على الإطلاق . فلم يكتب واحد من الماركسيين شيئاً قط في منطق الجدل ، أي ليس هناك كتاب فيما يمكن تسميته « بالجدل الماركسي » . صحيح أن ماركس أبدى هذه الرغبة لنفر من أصدقائه ذات يوم ، لكنها لم توضع قط موضع التنفيذ . وحتى هذه الرغبة لم تكن تستهدف إلا عرض الجدل الهيجلي بطريقة مادية . كتب ماركس في هذا المعنى إلى « كوجمان » يقول : « حين أفرغ من عبء الأعمال الاقتصادية سوف أكتب في الجدل . إن قوانين الجدل الصحيحة موجودة فعلاً عند هيغل ، لكنها في صورة مثالية ، ولابد أن ننزع عنها هذه الصورة . . » (٢) . أما « جدل الطبيعة » لإنجلز فهو ليس كتاباً في المنطق الجدل ، لكنه أقرب إلى « فلسفة العلم » أو هو يشبه إلى حد كبير « فلسفة الطبيعة » لهيغل ، فهو ليس أكثر من محاولة لتطبيق الجدل الهيجلي في ميدان العلوم الطبيعية ، وسوف نعود إلى تفصيل ذلك بعد قليل .

٣٧١ - وما يقال على قوانين الجدل التي ذكرها إنجلز ، يصدق كذلك على غيرها من « القوانين الفرعية » للجدل الماركسي . فهي كلها منقولة بنصها عن منطق هيغل فما يسمى بقانون « التغير المستمر والتطور الشامل » هو الفكرة التي عبر عنها أول مثلث في الجدل الهيجلي ، وأغنى بها مقولة الصيرورة . وهو ما عبر عنه هيغل في « ظاهريات الروح » تعبيراً يقرب جداً من تعريف الماركسيين للمادة حين قال : « إن الطبيعة الجوهرية للشيء عبارة عن حركة . . » (٣) . وما يسمى بقانون

(١) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٣١٨ .

(٢) راجع كتاب سينف هوك السابق ص ٦١ .

(٣) قارن قول لينين : « من ذا الذي يصدق أن تكون الحركة ، والحركة الذاتية ، والضرورة الداخلية ، والتغير ، والحيوية والنشاط ، وهو محور الهيجلية المجردة ؟ إن اكتشاف هذا المحور وفهمه ، وتخليصه (من المثالية) هو بالضبط ما فعله ماركس وإنجلز . . » المذكرات الفلسفية . ص ١٤١ .

« الترابط الشامل بين الظواهر » هو ما عبر عنه هيغل في قوة ووضوح في القسم الثاني من المنطق لا سيما في مقولة الأساس ، والجوهر والعرض ، والسبب والنتيجة ، والتفاعل . . . إلخ . بل إنه ينتهي إلى أن الوجود الفعلي هو شبكة هائلة من العلاقات المتداخلة كما سبق أن بينا . وما يقال عن اتجاه سير التطور من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب ، هو الفكرة الهيكلية التي تجعل التطور يسير من المجرد إلى العيني ، ومن المباشر ( أو البسيط ) إلى المركب . وقد شرحناها في الفقرة رقم ١٤٣ من هذا البحث .

#### رابعاً : المقولات

٣٧٢ - نستطيع أن نقول إننا أو استثنينا قول هيغل إن المقولات تعريفات للمطلق أو أنها الشروط المنطقية لوجود العالم - فإنه يمكن القول بعد ذلك بأن خصائص المقولات الماركسية هي نفسها المقولات الهيكلية : فهي عامة وشاملة ، وموضوعية وضرورية وهي تعبر عن الماهية الأساسية للأشياء ، وهي لا يخلقها ذهن الإنسان وإنما يكتشفها فحسب لأنها مستقلة عن وعي الإنسان وإرادته . . . إلخ .

وحين يعرض الباحث لبعض هذه المقولات « الماركسية » ، فسوف يبدو واضحاً أنه يكرر المقولات الهيكلية لا أكثر ولا أقل . لكن يبدو أنه من الضروري أن نعرض سريعاً لبعضها حتى يتضح ما نذهب إليه من أن « الجدل الماركسي » لا وجود له في الحقيقة ، وإنما الموحود هو الجدل الهيكلية كما استخدمته الماركسية ، أو كما طبقت في هذا الميدان أو ذلك : ماركس في علم الاقتصاد وتاريخ المجتمع ، وإنجاز في ميدان العلوم الطبيعية بصفة خاصة .

٣٧٣ - وفيما يلي بعض هذه المقولات :

١ - هناك مثلاً مقولات الكم والكيف والقدر ، ومضمونها هو نفسه المضمون الهيكلية . فالقدر يجمع في مركب واحد بين الكم والكيف أو هو « الإطار الذي يشمل بداخله وحدة الكم والكيف ، وأي اضطراب في القدر سواء من جانب

الكم أو الكيف يؤدي إلى تغير في الشيء بحيث ينقلب إلى شيء آخر . . . » وهذا التغير يتخذ شكل القفزة أو الطفرة . . . أو الخط العقدي الهيجلي .

٢ - وهناك أيضاً مقولتا السبب والنتيجة ، والرابطة السببية عامة وشاملة وضرورية ، وهي تصدق على جميع ظواهر الطبيعة والمجتمع ، البسيطة منها والمعقدة ، المعروفة للعلم أو المجهولة له ، والظواهر التي لا يكون بينها ارتباط سببي غير موجودة ولا يمكن لها أن توجد ، فكل ظاهرة لها بالضرورة سبب .

### ٣ - التفاعل :

والترابط السببي المتداخل بين ظواهر الطبيعة والمجتمع هو أكثر غزارة وتعقيداً من الترابط الذي تعبر عنه علاقة السبب والنتيجة . ولهذا فإن مقولة السبب والنتيجة تندرج تحت مقولة أوسع هي مقولة التفاعل . فالطبيعة تتألف من كل واحد ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بطريقة أو بأخرى . وفي هذا الترابط الشامل نجد أن الظاهرة الواحدة تكون نتيجة لسبب ما ، لكنها تقوم كذلك بدور السبب في علاقتها بأشياء أخرى .

### ٤ - المضمون والصورة :

المضمون هو المجموع الكلي للعناصر والعمليات التي يتألف منها الشيء أو الظاهرة . أما الصورة فهي الهيكل الذي يوضع فيه المضمون . والصورة والمضمون لا ينفصلان على الإطلاق لا في العالم المادي ولا في الظواهر الطبيعية ، فالمادية الجدلية تؤمن بوحدهما ، وترى أن تغير المضمون يستتبعه بالضرورة تغير الصورة<sup>(١)</sup> .

### ٥ - الماهية والظاهر :

ومفهوم الماهية يشبه مفهوم المضمون ولكنه ليس هو نفسه . إذ بينما نجد أن المضمون يمثل المجموع الكلي لجميع العناصر ، فإن الماهية هي الجانب الرئيسي الباطني الثابت - نسبياً - من الشيء . والماهية هي التي تحدد طبيعة الشيء وجميع

(١) ايغانسييف في كتابه السالف ص ١٣٠ - ١٣١ .

جوانبه الأخرى . والظاهر هو الجانب الخارجى ، وهو التعبير المباشر عن الماهية ، أو هو الشكل التى تظهر فيه الماهية . . والماهية تعبر عن نفسها فى الظاهر ، والظاهر يتم عن الماهية ولذا فهما متحدان . ومن هنا فإن التناقض الذى يظهر فى المجتمع الرأسمالى يعبر عن ماهية النظام الرأسمالى كله .

#### ٦ - الضرورة والحرية :

الحرية هى معرفة الضرورة : « فالضرورة لا تكون عمياء إلا إذا لم تفهم فحسب » كما يقول هيجل . ومن ثم فليست الحرية هى الاستقلال عن قوانين الطبيعة ، ولكنها تقوم فى معرفة هذه القوانين ، وفى إمكان استخدامها استخداماً ناجحاً فى تحقيق أهداف معينة . ويصدق ذلك سواء فيما يتعلق بقوانين الطبيعة الخارجية ، أو فيما يتعلق بالقوانين التى تنظم وجود الإنسان . « وأقصد كان هيجل أول من حدد تحديداً سليماً العلاقة بين الضرورة والحرية . . »<sup>(١)</sup>.

#### ٧ - الضرورة والصدفة :

ترى الماركسية أن الميتافيزيقيين لم يستطيعوا فهم المضمون الحقيقى لمقولاتى الضرورة والصدفة . ففريق منهم يرى أن الضرورة هى التى تحكم الكون ، لأن ظواهره تخضع لخطمية قاسية . ويذهب فريق آخر إلى القول بأن الضرورة لا أثر لها فى الكون ، لكن الصدفة وحدها هى التى تسود ظواهر العالم . ويرجع خلطهم هذا إلى تمسكهم بهذا المبدأ الميتافيزيقي الصلب الذى لا يلين : « إما . . أو » فهو الذى منعهم من فهم اتحاد الضرورة والصدفة فى هوية واحدة ، فكيف يمكن أن يقال - فى نظر هؤلاء الميتافيزيقيين إن العرضى ضرورى ، والضرورى عرضى . . ؟ . « بل إن الفهم المشترك عند عامة الناس ، ومعهم الغالبية العظمى من علماء الطبيعة ينظرون إلى الضرورة والصدفة على أنهما فكرتان تطرد كل واحدة منهما الأخرى باستمرار... »<sup>(٢)</sup> غير أن التفسير الصحيح للضرورة والصدفة هو أنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً

(١) ف . إنجلز : « ضد دوهرنج » ص ١٣٧ وأيضاً لينين « المادية ومذهب النقد التجريبي » ص ١٩٠

(٢) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٢٨٨ - ٩ .

بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، فهما حدان نسبيان يعتمد كل منهما على الآخر . فالصدفة تتحول إلى ضرورة والضرورة تعبر عن نفسها دائماً في صورة الصدفة . فقد تظهر بعض الخصائص المعينة عند حيوان معين : كأن تنمو للحيوان الذى يعيش في المناطق الجليدية طبقة سميكه من الجلد لكي تحميه من الظواهر الطبيعية لكن هذه الظاهرة العرضية قد تثبت فائدتها لهذا الحيوان فتجعله أكثر تكيفاً مع البيئة التى يعيش فيها ، ومن هنا يورثها ذلك الحيوان للأجيال القادمة . وهكذا تتحول هذه الخاصية العرضية عن طريق الوراثة إلى خاصية ضرورية .

## ٨ - الإمكان والواقع :

الإمكان هو شىء لم يتحقق بعد ، أعنى لم يوجد بالفعل ، لكنه يحمل في جوفه القدرة على التحقق في الوجود الفعلى . والواقع أو الوجود بالفعل هو إمكان قد تحقق أعنى أنه قد أصبح حقيقة فعلية موجودة في العالم بعد أن كان مجرد إمكانية ، وهو يظهر إلى الوجود نتيجة للقوانين الموضوعية أو بمعنى آخر نتيجة للضرورة الطبيعية<sup>(١)</sup> .

والإمكان والوجود بالفعل هما مقولتان متضادتان لكنهما مرتبطتان برباط لا ينفصم خلافاً لما يذهب إليه الميتافيزيقيون من إنكار للصلة بينهما وفصل أحدهما عن الآخر ، فبينما نرى بعض هؤلاء الميتافيزيقيين يذهبون إلى أن الإمكان غير موجود ولا يمكن له أن يوجد ، نرى بعضهم الآخر يذهب إلى أن كل شىء ممكن ، حتى المعجزات ممكنة وكلا الرأيين فاسد من أساسه ، ولا يعبر إلا عن قصور في فهم المغزى الحقيقى لمضمون الإمكان والواقع . ذلك لأن المقولتين تعبران عن فكرة واحدة : فما هو ممكن هو ما يتفق مع قوانين الطبيعة والمجتمع ، وهو نفسه الموجود بالفعل ، لأن الواقع الموجود فعلاً يتفق مع قوانين الطبيعة والمجتمع . ومن ثم فالمقولتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً ، وهما وجهان لشىء واحد . ومن المهم أيضاً أن نعرف أنهما « موضوعيتان » ، لأنهما تعكسان خصائص الأشياء والظواهر المستقلة عن وعى الإنسان . . . »<sup>(٢)</sup> .

(١) ياخوت : المرجع السابق . ص ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ - ٧ .

## ٩ - الفردى والجزئى والكلى :

الفردى هو الموجود العيى ، أو هو الشىء المفرد الموجود فى العالم . وبالتالى فهو أى ظاهرة من ظواهر العالم المادى . والكلى هو ما يطلق على مجموعة من الأشياء أو فئة من الظواهر المترابطة . ومن هنا فإن الكلى يرتبط دائماً بالفردى كما ترتبط اللبلاية بمجموعة الشجر ، وكما يرتبط بطرس بفئة الناس .

إلا أن الكلية أو العمومية على درجات متفاوتة : فاللبلاية مثلاً ليست شجرة فحسب لكنها نبات أيضاً . و « بوبى » ليس كاباً فحسب ، لكنه حيوان أيضاً . وهذا يعنى أن الكلى الذى يربط هذه اللبلاية وتلك اللبلاية ويوحد بينهما هو النوع ، أعنى « اللبلاية » بصفة عامة . وهذه الدرجة من التعميم تسمى « بالجزئى » . أما الطبيعة العامة التى تربط بين جميع أشجار اللباب ، وبين غيره من الشجر بصفة عامة فى فئة الشجر فهى « الكلى » . وعلى ذلك فإن « بوبى » هو الفردى ، والكلب هو « الجزئى » ، والحيوان هو « الكلى » . والأيدروجين هو الفردى ، والغاز هو الجزئى ، والعنصر الكهائى هو الكلى . وهكذا نصل إلى هذه التصورات الثلاثة المرتبطة ارتباطاً جوهرياً وهى : الفردى ، والجزئى ، والكلى .

خامساً - إنجلز . . . و « جدل الطبيعة » .

٣٧٤ - عرضنا فيما سبق لبعض المقولات الماركسية، ورأينا أنها لا تحوى فكرة واحدة لم ترد بنصها فى منطق هيغل . ومن ذلك يتضح لنا أنه ليس هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » ولا « بمقولات الجدل الماركسى » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . وإنما هناك الجدل الهيغلى كما طبقته الماركسية فى هذا الميدان أو ذاك .  
ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المقولات التى عرضنا لها ليست هى « كل » المقولات التى أخذتها الماركسية عن منطق هيغل ، وإنما هى بعض هذه المقولات فحسب وإلا فهناك بالإضافة إليها مقولات : « الهوية والاختلاف ، والطارد والجذب ، والكل والأجزاء ، واللامتناهى الزائف ، واللامتناهى الحقيقى ، والقوة ومظهر تحققها ، والكم المتصل ، والكم المنفصل ، والمجرد والعيى . . . إلخ . إلخ .

وهي موجودة بشكل أو بآخر في الكتب الماركسية . وهي أيضاً متناثرة في كتاب إنجلز « جدل الطبيعة » وهو الكتاب الذى يمثل - كما سبق أن أشرنا - المسودات الأولى التى كان يكتبها بغية تطبيق الجدل الهيغلى فى ميدان العلوم الطبيعية<sup>(١)</sup> . أضف إلى ذلك كله تصنيف الأحكام والقياس فى المنطق الجدلى ، وقد عرض لها إنجلز فى كتابه هذا وذهب إلى أن هذا التصنيف يعارض تصنيف المنطق القديم ، لأنه لا يكتفى « بسرد » الصور المختلفة للحكم والقياس دون أن يبين ما بينها من ترابط ، لكنه على العكس يستنبط هذه الصور بعضها من بعض ، بحيث يندرج بعضها فى بعض ، ويطور الصور العليا من الصور الدنيا . . . إلى آخر تلك الأفكار الهيجالية التى عرضنا لها فى حينها . ثم يذكر إنجلز بعد ذلك تقسيم هيغل للحكم إلى أربع صور بأفرعها المختلفة ويعاق على التقسيم بقواه « إن هذا التقسيم للأحكام قد يبدو جافاً ، بل قد يبدو تقسيماً تعسفياً لاوهلة الأولى . غير أن حقيقة هذا التقسيم سوف تظهر واضحة للغاية لمن يدرس العرض الرائع البارع لها فى « المنطق الكبير » لهيغل . وحتى نتبين كيف أن هذا التقسيم لا يقوم على قوانين الفكر فحسب ، لكنه يقوم أيضاً على قوانين الطبيعة سوف نسوق لذلك بعض الأمثلة . . . إلخ »<sup>(٢)</sup> . وعلى هذا النحو كان يسير إنجلز فى كتابه « جدل الطبيعة » أعنى الاعتماد على المنطق الهيغلى أولاً ، ثم جمع الأمثلة المختلفة التى تفسر هذا المنطق وتؤيد صحته ثانياً .

(١) قارن مثلاً قوله « الطبيعة الحقيقية لتحديدات الماهية ( أى لما تضمنه من مقولات ) شرحها هيغل حين قال : كل شئ فى الماهية نبي كالموجب والسالب .. إلخ » . جدل الطبيعة ص ٢٨٣ . « وتصور هيغل للقوة ومظهرها ، والسبب والنتيجة ، وتوحيده بين كل مقولتين منها فى هوية واحدة يبرهن على صحته تغير صور الحركة . . . وهذا واضح فعلاً فى عميلة القياس فالقوة تقاس بمظهرها ، كما يقاس السبب بالنتيجة » . نفس المرجع ص ٣٦٩ . « وكان هيغل هو الذى حدد تحديداً سليماً معنى اللامتناهي الحقيقى سواء فى الزمان أو المكان أو فى سير الطبيعة والتاريخ . . . » ص ٣١٤ . و « مشكلة إمكان انقسام المادة حلها هيغل بسهولة حين بين أن المادة تنقسم وتتصل فى آن معاً ، وهى لاتنقسم ولا تتصل فى وقت واحد . . » ص ٣٢٤ « والحقيقة القائلة بأن الهوية تتضمن فى جوفها الاختلاف يعبر عنها أى حكم حيث نجد المحول يختلف بالضرورة عن الموضوع ، فالسوسن أسود ، والوردة حمراء . . . أما قانون الهوية فهو يمثل وجهة النظر الميتافيزيقية القديمة . . » ص ٢٨٥ . وقارن كذلك ص ٢٨١ وأيضاً ٢٨٣ - ٢٨٤ وأيضاً ٢٨٧ - ٢٨٨ و ص ٢٩٥ وكذلك ٣١٤ - ٣١٥ و ص ٤٠٦ . . . إلخ . إلخ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٧ .

٣٧٥ - معنى ذلك أن المخطوطات التي نشرت لإنجلز في نهاية الربع الأول من هذا القرن تحت عنوان « جدل الطبيعة » ليست كتاباً في الجدل ، لكنها - كما سبق أن أشرنا - محاولات متفرقة أراد بها صاحبها أن يمد نطاق الجدل الهيجلي بحيث يشمل ميدان العلوم الطبيعية . أما أنها ليست كتاباً في الجدل فهذا ما يصرح به إنجلز نفسه في وضوح حين يقول : « لسنا معنيين هنا بتأليف كتاب في الجدل ، لكننا نهدف فحسب إلى أن نبين أن القوانين الجدلية هي القوانين الصحيحة لتطور الطبيعة ، وأنها بالتالي تصدق كذلك على علم الطبيعة النظري . . . » (١) .

ولقد سبق أن ذكرنا أن إنجلز كان يفكر منذ عام ١٨٧٣ أن يؤلف كتاباً في « جدل الطبيعة » يحاول أن يبين فيه أن القوانين الهيجامية تنسحب كذلك على المكتشفات العلمية التي ظهرت بعد وفاة هيجل ، وأن هذه المكتشفات دليل صدق على صحة الجدل الهيجلي . ذلك لأن هيجل حين طبق الجدل على الطبيعة في القسم الثاني من مذهبه : كان يعتمد في ذلك الوقت على علم الطبيعة في عصره ، وهو العلم الذي عبرت عنه مدرسة « نيوتن » : « . . . واليوم وبعد أن ظهرت نظرية جديدة للطبيعة ، واكتملت مظاهرها الأساسية ، مست الحاجة من جديد إلى القيام بنفس المحاولة ، وفي نفس الاتجاه . . . » (٢) . فهي إذن محاولة لإعادة النظر في التطبيق الجدلي الذي قام به هيجل في فلسفة الطبيعة ، مست إليها الحاجة بعد أن تطورت العلوم الطبيعية بعد وفاته تطوراً واسع المدى ، وظهرت مكتشفات علمية جديدة لم يكن « الرجل العجوز » يعلم شيئاً عنها .

٣٧٦ - ولقد ظل إنجاز طوال حياته يتطلع إلى تحقيق هذه الرغبة ، لكنه لم يتمكن قط من تحقيقها تحقيقاً كاملاً . وبقيت محاولاته فيها مخطوطات متفرقة ومواد منفصلة ، وملاحظات متعددة لا يجمعها سياق واحد منظم ؛ فعلى الرغم من أنه بدأ يجمع مادة هذا الكتاب منذ عام ١٨٧٣ إلا أنه اضطر إلى أن يؤجل الكتابة في هذا الموضوع حتى يتفرغ لنقد آراء « دوهرنج » فأصدر كتابه المعروف « ضد دوهرنج في يونيو عام ١٨٧٨ » . ومنه يتضح أنه استفاد كثيراً من المادة العلمية التي جمعها لفكرته الأولى في الكتابة عن جدل الطبيعة . ويبدو أنه اضطر في

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٤ .

النهاية إلى أن يترك هذه المهمة تماماً بعد وفاة ماركس عام ١٨٨٣ حتى يتفرغ لنشر المخطوطات التي خلفها ماركس ، ولقيادة الحركة العمالية .

٣٧٧ - ونستطيع أن نكون فكرة عامة عن الخطوط الرئيسية لكتابه هذا من الرسالة التي كتبها إلى ماركس ( في ٣٠ مايو ١٨٧٣ ) والتي يبدو منها أنه كانت قد اختصرت في ذهنه ثلاثة أفكار أساسية عن جدل الطبيعة هي :

١ - التلازم الضروري بين المادة والحركة ، أو اعتبار الحركة شكل وجود المادة.

٢ - الصور المتنوعة للحركة والعلوم المختلفة التي تدرس هذه الصور : كالميكانيكا ، والفيزياء والكيمياء ، وعلوم الحياة .

٣ - الانتقال الجدلي من إحدى هذه الصور إلى الأخرى ، مما يترتب عليه الانتقال من علم إلى آخر<sup>(١)</sup> .

وهذه الأفكار الأساسية عن جدل الطبيعة لا تختلف كثيراً في الواقع عن الصورة العامة التي كان قد خططها هيغل في فلسفة الطبيعة . فنحن نعرف أن هيغل قام أيضاً بدراسة الصور المختلفة التي تتشكل منها الطبيعة ، وقسم هذه الصور - بصفة عامة - إلى ثلاث هي : الميكانيكا ، والفيزياء ، والعضويات ، وذهب إلى أن الميكانيكا تدرس المادة التي لم تتشكل بعد في هذا الشيء أو ذاك ، أو أنها لا تدرس الموضوعات الجزئية ، لكنها تدرس العلاقة الآلية والهندسية المجردة بين هذه الموضوعات . أما الفيزياء فترتفع من هذه النظرة المجردة إلى دراسة الموضوعات المادية باعتبارها كائنات جزئية لها خصائص معينة ، وصفات محددة ، ويؤدي ذلك إلى دراسة الصور العليا في الطبيعة أو الطبيعة اللاعضوية . أما الانتقال من الطبيعة اللاعضوية إلى الطبيعة العضوية ، فإنه يتم عن طريق التفاعلات الكيميائية وتمر المادة العضوية بثلاث مراحل هي : الجيولوجيا ، ثم مملكة النبات ، ثم مملكة الحيوان التي يبدأ فيها الوعي في الظهور ، ومن هنا كان الكائن الحيواني هو الصورة النهائية للطبيعة فهو يمثل الانتقال إلى الروح .

تلك هي الفكرة الهيغلية عن الطبيعة بإيجاز شديد ، ذكرناها سريعاً لنقول

إن كل ما كان ينشده لإنجلز هو مراجعة هذه الفكرة على ضوء المكتشفات العلمية الحديثة التي ظهرت بعد وفاة هيغل . وهذا واضح حتى من تصنيفه للعلوم الطبيعية تصنيفاً يكاد يتفق مع التصنيف الهيجلي السابق . . (١).

٣٧٨ - فلم يحاول لإنجلز - إذاً - أن يكشف عن منطق جديد في « جدل الطبيعة » لكنه هنا وهناك يطبق المنطق الهيجلي في كل ما يكتب دون أن يحاول قط أن يخرج على مقولات هذا المنطق . وهو في هذا كله يحاول أن يصل إلى هدفين : الأول : أن يبرهن على أن الطبيعة تعمل على نحو جدلي لا على نحو ميتافيزيقي . فالطبيعة في نظره « هي التي تبرهن على صحة الجدل ، ويجب القول بأن العلوم الطبيعية قدمت لهذه البرهنة مواد غنية إلى أقصى حدود الغنى وهي مواد تزداد كل يوم . . وهكذا يثبت العلم في نهاية المطاف أن الطبيعة تعمل على نحو جدلي لا على نحو ميتافيزيقي » (٢) .

أما الهدف الثاني : فهو أن يشرح لنا كيف أن المنطق الهيجلي إذا ما انفصل عن مذهبه المثالي ، وتخلص مما في هذا المذهب من صوفية ، فإن قوانينه الجدلية لا تصبح واضحة وضوح النهار فحسب ، بل « . . تصبح ضرورة مطلقة للعلم الطبيعي . . » (٣) .

ولذلك نجده بعد أن يعرف الماهية الأساسية للمادة بأنها الحركة اللازمة لها بحيث يصبح وجود المادة بدون الحركة مستحيل التصور ، يحدد الشكل الأساسي للحركة بأنه الصراع بين مقولتي الجذب والطرْد ، ويرى أن وحدة هذين الضدين وصراعهما المستمر هو الذي يحدد كل تجمعات المادة من حيث التكوين والتطور ، ومن حيث التحول والذوال ، ولذا نراه يهاجم النظرية التي تجعل من الجذب وحده الماهية الأساسية للمادة « . لأنها نظرية خاطئة بالضرورة ، فحينما يكون الجذب ، يكون الطرد كذلك . لذلك فقد كان هيغل على حق تماماً حين قال إن ماهية المادة هي الجذب والطرْد .. » (٤) . لأن الطرد والجذب متلازمان تلازم الموجب والسالب تماماً ،

(١) انظر جدل الطبيعة ص ٣٢٩ . وما بعدها ..

Dialectics of Nature. p. 272.

(٣)

F. Engels : Anti-Dühring. p. 36.

F. Engels : Ibid. p. 323.

(٤)

ولذا فإن الجدل يقرر « أن النظرية الصحيحة عن المادة لا بد أن تفسح مجالاً للطرد كما تفسح مجالاً للجذب سواء بسواء . وهو يقرر أيضاً أن النظرية التي تقوم على الجذب وحده نظرية زائفة وناقصة لأنها لا تعبر إلا عن جانب واحد فحسب .. » (١).

٣٧٩ - على هذا المنوال يسير إنجاز في « جدل الطبيعة » . وسوف نكتفي فيما يلي - بالإضافة إلى ما تقدم - بثلاثة أمثلة من ثلاثة علوم لناق الضوء على ما نقول من أنه كان يعرض للعلوم الطبيعية المختلفة بمنظار الجدل الهيجلي فيراها برهاناً على صدق هذا المنطق وبقية منه .

فهو حين يتحدث مثلاً عن علم الطبيعة لا يرى فيه إلا العلم الذي « .. يدلنا على أن كل تغير هو انتقال من الكم إلى الكيف ، نتيجة للتغير الكمي لمقدار الحركة .. » (٢) وهو بالإضافة إلى المثل الهيجلي الذي يسوقه عن تحول الماء من سائل إلى غاز يذكر عدة أمثلة توضيحية أخرى (٣) . ثم يصل إلى هذه النتيجة « باختصار إن ما يسمى في علم الطبيعة بالنقاط الثابتة ليس إلا النقاط العقدية التي تؤدي فيها التغيرات الكمية - أي زيادة الحركة أو نقصها - إلى إحداث تغيرات كيفية في حالة الجسم موضع الدراسة أي أنها النقاط التي يتحول عندها الكم إلى كيف .. » (٤).

والعلم الثاني الذي نذكره سريعاً هو علم الكيمياء الذي يفتح إنجاز الحديث فيه بهذه العبارة : « أما الميدان الذي تلاً فيه قانون الطبيعة الذي اكتشفه هيجل ، وكلل بانتصارات بالغة الأهمية فهو ميدان الكيمياء ، إذ يمكن أن يقال إن الكيمياء هي علم تغير الأجسام تغيراً كيميائياً وفقاً للتغيرات التي تحدث في التركيب الكمي . وكان هيجل نفسه يعرف ذلك . » (٥) . ثم يعرض بعد ذلك للأمثلة المختلفة عن

(١) Ibid. p. 323.

(٢) بل يرى أحيانا أنه على الرغم من أن مقولات هيجل صوفية ، إلا أنه استطاع بواسطتها أن يتنبأ بالمكتشفات العلمية التي ظهرت بعد ذلك . قارن مثلاً . « جدل الطبيعة » ص ٣٢٤ .

(٣) قارن نفس الشرح للقوانين الهيجلية في كتابه « ضد وهرنج » ثم قوله بعد ذلك : هذا هو تماماً الخط العقدي الهيجلي لعلاقات مقولة القدر . . . إلخ . ص ١٧٣ .

Ibid. p. 87-8.

(٥)

Ibid. p. 87.

(٤)

التركيبات الكيميائية للأكسوجين وكيف أننا نحصل بثلاث ذرات منه - بدلاً من ذرتين كما هو المعتاد - على غاز « الأوزون » وهو جسم جديد يتميز تماماً عن الأكسوجين؛ ثم كيف أننا نستطيع أن نحصل بنفس الطريقة على « أول أكسيد الأوزون » و « خامس أكسيد الأوزون . . . إلخ » أى باختصار يتحدث عن التركيبات الكيميائية المختلفة لكي يبرهن على أن الاختلاف في تركيبها الكمي هو سبب اختلافها الكيفي . وما يهمنا من ذلك كله هو أنه لم يكن يعرض لسلسلة من التركيبات الكيميائية إلا ويقول : « نحن في هذه السلسلة نلتقي بالقانون الهيجلي في صورة أخرى . . . »<sup>(١)</sup> . ثم يقول في النهاية « . . . وأخيراً فإن القانون الهيجلي قانون صحيح ، وهو لا يصدق على المواد المركبة فحسب ، بل يصدق كذلك على العناصر الكيميائية . . . »<sup>(٢)</sup> .

والعلم الثالث الذي نذكره هو علم وظائف الأعضاء الذي يرى « إنجلز » أنه لا يمكن أن يكون علماً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ما لم يأخذ بالفكرة الهيجلية التي ترى أن الموت عنصر ضروري وعامل جوهري للحياة ، وأن « سلب » الحياة موجود أساساً في الحياة نفسها ، وبالتالي فلا يمكن التفكير فيها إلا من حيث علاقتها الضرورية بالموت الذي تحمل في جوفها بذرته : « وليس التصور الجدلي للحياة شيئاً غير ذلك ، فالحياة تعنى الموت »<sup>(٣)</sup> .

٣٨٠ - ومن ذلك كله يتضح لنا كيف أن إنجلز كان يرى أن المنطق الجدلي الهيجلي ينطبق بالضرورة في ميدان العلوم الطبيعية ، وأن هذه العاوم هي البرهان العملي على صحة هذا المنطق الذي يبدو واضحاً « وضوح النهار » في جميع المجالات . وذلك يعنى أن الماركسية لم « تعكس » الجدل الهيجلي ، ولم تقمه على قدميه ، وإنما طبقت كما هو بعد أن حذفت التصور المثالي للعالم ، ولهذا فكثيراً ما نصادف مثل هذه العبارة في تطبيق إنجلز للجدل الهيجلي في ميدان العلوم الطبيعية : « . . . هيجل هنا مادي صميم ، أكثر بكثير من علماء الطبيعة المحدثين . . . »<sup>(٤)</sup> . أى أن هيجل هنا لا يقف على رأسه وإنما يقف على قدميه ، بل وبثبات أكثر

Ibid. p. 90.

(٢)

Ibid. p. 88.

(١)

F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 387.

(٣)

Ibid. p. 391.

(٤)

بكثير من علماء الطبيعة . وإذا ما تساءلنا عن السبب فالسبب واضح : إن إنجلز هنا يتحدث عن منطق هيجل لا عن مذهبه .

### سادساً – كلمة ختام

٣٨١ – نخلص من ذلك كله إلى ما سبق أن قلناه مراراً من أن الجدل الماركسي ومقولاته ليس شيئاً آخر غير الجدل الهيجلي ، وأن الماركسية تبنت الجدل الهيجلي كما هو دون أن تقلبه أو تعكسه . وبما تقدم نستطيع أن نقول بإيجاز شديد إن الماركسية لم تترك من المنطق الهيجلي كما عرضناه في هذا البحث شيئاً يستحق الذكر . صحيح إنها رفضت بعض الأفكار الهيجلية كالفكرة الشاملة ، والعقل ، والروح ، والمطلق . . . إلخ . لكن ذلك كله لا يدخل في صميم المنطق ، وإنما هو ينتمي إلى التصور الهيجلي المثالي للعالم ، أما مقولات الوجود ، وارتباط كل مقولة بالأخرى وانتقالها إليها ، وما إلى ذلك من أفكار فهو ما نصادفه في الكتب الماركسية التي تتحدث عن الجدل . وقل مثل ذلك في مقولات الماهية وانعكاس هذه المقولات بعضها في بعض ونسبها . . . إلخ . ونفس الملاحظ تنطبق كذلك على القسم الثالث من المنطق الهيجلي الذي يحدد العلاقة بين الكلي والجزئي والفردي ، ثم يعرض تصنيف الأحكام وضروب القياس تبعاً للعلاقات المختلفة بين الأفكار الثلاثة السابقة . هذه كلها هي مكونات ما يسمى بالجدل الماركسي . وبديهي أن حذف بعض المقولات الفرعية هنا وهناك لا يؤثر فيما نقول ، فقد قام هيجل نفسه بحذف بعض المقولات الفرعية حين أعاد كتابة المنطق في الموسوعة .

٣٨٢ – وإذا كان إنجلز يقول أحياناً « هيجل مادي هنا . . . » وإذا كنا قد فسرنا مضمونها بأنه حديث عن منطق هيجل لا عن مذهبه ، فإن لينين يعطينا هذه الفكرة بصورة أوضح وأشمل ويؤكد بوضوح هذا التفسير . يقول في مذكراته الفلسفية : « . . . في هذا الكتاب (المنطق) ، وهو عمل هيجلي مثالي ، نجد القليل من المثالية والكثير من المادية ، أليس ذلك تناقضاً . . . ؟

لكنه حقيقة . . . !»<sup>(١)</sup>. والتناقض الذى يشير إليه لينين هنا هو ارتباط هذا المنطق الجدلى بمذهب هيغل المثالى ، أو وجود هذه « النواة العقلية » فى قلب ذلك الغلاف الصوفى . ويقدم لينين ملاحظة أخرى هامة عن الفصل الأخير من منطق هيغل تجدر الإشارة إليها لأن المنطق فى هذا الفصل يصل إلى قمته عند الحديث عن الفكرة المطلقة . يقول لينين : « مما تجدر ملاحظته أن الفصل الذى عقده هيغل عن الفكرة المطلقة يندر أن تجد فيه - كله - كلمة واحدة عن الله ، وفضلاً عن ذلك فهو لا يتضمن شيئاً من المثالية بصفة خاصة . وإنما هو يدرس الذات والمنهج الجدلى ، وإنه لما يستلفت النظر حتماً أن تكون آخر عبارة يقولها وهى فى نفس الوقت تلخص جوهر منطق هيغل كله ، هى عبارة : المنهج الجدلى . . . »<sup>(٢)</sup>.

٣٨٣ - والواقع أن لينين لو ذهب إلى أن المنطق الهيجلى ينحلو من المثالية والمادية معاً لكان فى ظننا أقرب إلى الصواب . ذلك لأن هذا المنطق ليس إلا دراسة عقلية لصور الفكر ومقولاته ، وعرض بارع للركائز التى قامت عليها المعرفة البشرية على مر العصور ومحاوله جادة لشرح مضمونها ، وتوضيح علاقتها ببعضها ببعض ، ومن هنا فهو لا يوصف بالمثالية أو المادية إلا من حيث ارتباطه بهذه الفلسفة أو تلك<sup>(٣)</sup> . ولا أدل على ذلك من أن المثالية الهيجلية استخدمت هذا المنطق حين ربطته بمذمبيها ، فى الوقت الذى جاهدت فيه الماركسية لكى تمخلصه من هذا « الغلاف المثالى » حتى تربط بينه وبين المفهوم المادى للطبيعة والتاريخ ، ولتذهب بدورها إلى أنه يشكل مع الفلسفة المادية وحدة عضوية لا تنفصم .

ويدلنا على ذلك أيضاً أن الماركسية نفسها كانت ترى أن انتشار المنطق الجدلى فى البلدان الأوروبية - حتى مع ارتباطه بالمذهب الهيجلى المثالى - هو فى حد ذاته - فاتحة خير ، فقد يودى ذلك بالمفكرين فى هذه البلاد أن يقفوا على الحقيقة حين

V. Lenin : Collected Works. Vol. 38. p. 234.

( ١ )

Ibid . p. 234.

( ٢ )

( ٣ ) ذلك لا يتعارض بالطبع مع القول بأن الجدل قد ارتبط فى تاريخه الطويل بالفلسفة المثالية لقرنها

منه ، ولأن الجدل لا يكون إلا حيث يكون الوعى . وسوف نعود إلى ذلك فى الفصل القادم .

يتخذون من الجدل الهيجلي سبيلاً للكشف عنها بغض النظر عن القشرة المثالية التي تغلفه . ولهذا نرى « إنجاز » يستبشر خيراً من هجرة الهيجلية إلى إنجلترا في أواخر القرن الماضي ، لأن ذلك يعنى أن الفلسفة في إنجلترا سوف تفلح عن ترديد الأخطاء التي وقع فيها. كانت وهيوم من قبل ، « فكان من البديهي تماماً أن يميل إلى توقع الخير من ظهور الهيجلية في إنجلترا . . . أملاً في أن يسهم هذا الفيلسوف المثالي والجدل العظيم في توضيح الأخطاء المثالية والميتافيزيقية الصغيرة التي كانت تقع فيها الفلسفة في هذه البلاد . . . » (١).

لكن الهيجلية الجديدة كانت تياراً مثاليّاً ، فاستخدمت المنطق الهيجلي — كما هي الحال في الهيجلية الأم — استخداماً مثاليّاً ، فخاب أمل الماركسية فراحت تصفه بأنه : « تيار من أعظم التيارات رجعية في الفلسفة المثالية . . . انتشر في عدد من الدول الرأسمالية بعد الحرب العالمية الأولى . وما زالت آثاره باقية حتى اليوم . ولقد شوه دعواتها الجدل المثالي عند هيجل ، فطرحوا جانباً كل ما له قيمة حقيقية في هذا الجدل ، وحاولوا أن يستخدموه في محاربة الفلسفة الماركسية بغية الوصول إلى تبرير سوفسطائي للأفكار السياسية الرجعية ، وغيرها من الأفكار المنافية للعلم . . . » (٢).

٣٨٤ — ولعل ذلك يؤكد ما يقوله « ولاس » من أن أصحاب اليمين وأصحاب اليسار جميعاً استخدموا المنطق الهيجلي وتأثروا به ، وزعم كل منهم أنهم الورثة الحقيقيون للنبي (٣) . وإذا كانت الماركسية حاولت جاهدة أن تربط بين الجدل الهيجلي والمذهب المادى فلا بد أن نسوق كلمة موجزة في هذه الخاتمة عن استخدام الماركسية لهذا الجدل مرجئين نقد المنهج ككل إلى الفصل القادم .

٣٨٥ — يمكن القول بأن الماركسية استخدمت الجدل الهيجلي في ميدانين مختلفين : الميدان الأول وهو الذي ارتبط باسم ماركس بصفة خاصة : هو ميدان الحياة الإنسانية والعلوم الإنسانية بصفة عامة من تاريخ واجتماع واقتصاد . . . إلخ . أما الميدان الثاني فهو ميدان العلوم الطبيعية ، وهو الاستخدام الذي ارتبط باسم

V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 353.

"Fundamentals of Marxism"; p. 83.

W. Wallace : Prolegomena; p. I.

(١)

(٢)

(٣)

إنجلز بصفة خاصة . والواقع أن الاستخدام الأول هو الأقرب إلى الفهم والتصور ، بل إن كثيراً من الباحثين - من غير الماركسيين - يذهبون هذا المذهب . فيرى بعضهم مثلاً أن من الضروري في دراسة التاريخ أن نربط بين الأفكار التي عبرت عنها العصور التاريخية المختلفة ، بحيث تبدو هذه العصور حلقات مترابطة ، ولفهم هذه الحلقات فإنه لا مناص من استخدام الأفكار الجدلية لإلقاء الضوء على الارتباطات الداخلية بينها ، ويهاجمون بشدة المآخذ التي أخذها « كروتشه » على هيغل في هذا الصدد . وسواء أكان استخدام الأفكار الجدلية ضرورياً لفهم التاريخ أم لم يكن ، فإنه على الأقل استخدام مفهوم ، وله معنى وله مبرراته التي يستند إليها أصحابه . وقل مثل ذلك حين نقول مثلاً إن هناك صراعاً بين النظم الاجتماعية ، أو تطاحناً بين الطبقات التي يتكون منها المجتمع ، أو تناقضاً بين مصالح العمال ومصالح رؤوس الأموال . . إلخ . كل ذلك يمكن أن يفهم وأن يناقش وأن يكون له معنى لدى السامع . والسبب أن هذه المجالات كلها تتضمن وجود الوعي بدرجة كبيرة أو صغيرة .

أما الاستخدام الثاني للجدل الهيغلي ، فهو استخدام لا معنى له ، وليس له ما يبرره . ولهذا فإن محاولة إنجلز تطبيق الجدل الهيغلي في ميدان العلوم الطبيعية - بعد أن رفض وجهة النظر المثالية - محاولة محكوم عليها بالفشل لا محالة . وينسحب ذلك أيضاً على الربط بين الجدل والمادة بصفة عامة . فإذا كان التناقض نفسه يعنى أنك لا تقول شيئاً ، أو أنك لا تقرر شيئاً على الإطلاق ، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك إنه موجود في العالم ؟ بل كيف يمكن أن نقول إنه حقيقة هذا العالم . . ؟ (١) .

وإذا كان من الممكن أن يكون هناك صراع بين الطبقات وتناقض في مصالحها ، فكيف يمكن أن يكون هناك صراع في جوف المادة . . ؟ كيف يمكن أن يكون هناك تناقض داخل الذرة بين النواة والإلكترون . . ؟ أى تناقض هذا الذى يكون بين عنصرين من عناصر تكوين الشيء . . ؟ لأن الشيء يتكون من عناصر «مختلفة» فإنه بذلك يكون قد تناقض مع نفسه . . ؟ إذا قلت إن منزلى يتكون من أربع

غرف كان معنى ذلك أن كل غرفة « تناقض » الأخرى . . . ؟ إذا وصفت شيئاً من الأشياء بأنه يتكون من كذا وكذا من العناصر المختلفة ، كان معنى ذلك أنه يحوى فى جوفه تناقضاً وصراعاً ، وأن كل عنصر « يناقض » الآخر . . . ؟ .

يبدو أن مصدر الخلط يأتى أحياناً من وجود التغير والحركة فى ظواهر الطبيعة فهذا المنزل الذى أراه قائماً أمامى الآن لن يلبث بعد فترة طويلة أو قصيرة أن يكون أثراً بعد عين لأنه دائم التغير . وإذا كانت التغيرات التى تطرأ كل يوم على هذا المنزل طفيفة للغاية حتى لا تكاد تلاحظ ، فإن هذا التغير الطفيف المتدرج المستمر سيصل يوماً إلى حد ينقلب معه المنزل « فجأة » إلى ضده ، فتراه قد تحول إلى كومة من تراب . ونحن لا نشك فى وجود التغير فى كل مكان ، لكن السؤال يبقى مع ذلك قائماً : هل هذه الكومة من التراب هى « ضد المنزل » ، هل هى نقيضه أم أنهما شيان مختلفان فحسب . . ؟ قد يقال لكن التناقض هو فى عدم ملاحظة التغير المستمر الذى يطرأ على الشئ ، أو هو فى تصور الأشياء « هى هى » مع أنها دائماً الحركة والتغير « فى كل لحظة » ، فحين أقول إن هذا الحجر الذى أمامى هو الذى كان بالأمس ، أو إنه هو كما هو الآن ساكناً فإننى بذلك « أتناقض » مع حقيقة علمية هى أن هذا الحجر يتألف من ذرات دائمة الحركة . غير أن ذلك فى الحقيقة ليس تناقضاً ولا تضاداً ، إنه فقط تعبير عن مستويين مختلفين من الإدراك وقل مثل ذلك حين أنظر إلى كوب الماء فأراه بالعين المجردة نقيماً صافياً ، بينما أراه تحت المجهر مليئاً بالعلائق والميكروبات . ليس ثمة تناقض بين الحالتين ، وإنما هما فقط موقفتان مختلفتان يمثلان مستويين مختلفين من الإدراك : الإدراك العادى أو إدراك رجل الشارع ، ثم إدراك العالم بأجهزته ومخابيره . وليست معرفتى للشمس بأنها « قرص صغير » بمناقضة لمعرفة العالم بأنها أكبر من الأرض ملايين المرات . دع عنك أن تكون الشمس تحمل فى جوفها « تناقضاً » .

٣٨٦ - ليس هناك تناقض ولا صراع ولا تضداد بين أشياء الطبيعة ، لا فى علاقتها بعضها ببعض ، ولا فى « داخل » كل منها . وإنما هناك فقط ظواهر كثيرة وأشياء مختلفة ومتعددة ، تتكون كل منها من عناصر مختلفة ومتنوعة . وهذه العناصر المختلفة التى تتألف منها الأشياء ليست مما يميز لنا القول بأنها عناصر متضادة ،

ومركبات متناقضة تضم في جوفها « صراعاً » مستمراً هو مصدر الحركة والتطور .  
ويبدو أن الخلط ينشأ من استخدام تعبير غامض هو « جدل الطبيعة » بديلاً لتلك  
الحقيقة البسيطة المعروفة وهي أننا نلاحظ التغير في جميع الميادين (١).

وما يقال عن التناقض والتضاد في الطبيعة يقال كذلك على السلب ؛ فأشياء  
الكون وظواهره هي كلها عبارة عن وقائع موجبة لا أثر فيها للسلب . وليست  
« الكهرباء السالبة » ، و « الموجة السالبة » ، و « الشحنة السالبة » . . . . إلخ .  
إلا مصطلحات علمية لوقائع موجبة . وكلمة « موجبة » لا تعني هنا أكثر من أنها  
أشياء موجودة فحسب . وليست يدي اليسرى سلباً ليدي اليمنى ولا نقيضاً لها ،  
ولكنهما معاً واقعتان موجبتان ( وهما كلمتان مترادفتان في الواقع ) مختلفتان . وبديهي  
أن الاختلاف لا يعني التناقض أو السلب . . إلخ . ومعنى ذلك أن السلب لا يكون  
إلا سلباً لفكرة ، أو بتعبير أدق السلب سلب في حكم ولا معنى للسلب بدون حكم ،  
فإذا قلت إن « أ ليست ب » فإن السلب في هذه الحالة لا يكمن في جوف « أ »  
ولا في داخل « ب » وإنما هو ينصب على العلاقة بينهما .

٣٨٧ - أما انتقال الأشياء من الكم إلى الكيف ، فهو قول أقرب إلى الأقوال  
الذاتية والتعبيرات المثالية منها إلى التعبير العلمي الدقيق ؛ فالبحث العامي في الواقع  
لا يهتم على الإطلاق بتوضيح العبور من الكم إلى الكيف ، ولكنه يبدأ من الكيف  
المحسوس بوصفه مظهراً ذاتياً خداعاً ، حتى يجد وراءه الكم بوصفه حقيقة الكون (٢) .  
فالكم يولد الكم في نظر العلم ، والقانون العلمي صياغة كمية ، كما أن العلم  
لا تتوفر لديه أية رموز للتعبير عن الكيف من حيث هو كيف .

وحتى إذا سلمنا بأن التغيرات الكمية المتدرجة في حرارة الماء ينتج عنها تحول  
كيميائي بحيث يتغير الماء ويصبح بخاراً ، فماذا بعد ذلك . . ؟ يتحول البخار بعد ذلك  
إلى ماء مرة ثانية ، فأين هو التقدم . . ؟ « إنني أرى هنا دورة . لا شك أن الماء لم يعد  
محتوى في الإناء ، لكنه في الخارج على الأعشاب والأرض ، وفي شكل ندى .

S. Hook : "From Hegel To Marx". p. 75.

(١)

(٢) جان بول ساتر : « المادية والثورة » ص ١٦ - قارن الدكتور زكي نجيب محمود في

كتابه « نحو فلسفة عملية » ص ٣١٠ - ٣١٨ .

لكن ذلك ليس إلا تغييراً في المكان . فباسم أى ميتافيزيقا نرى في هذا التغير المكافئ تقدماً . . . (١) .

ثم هل صحيح أن « الخط العقدى » موجود في جميع التغيرات ، بمعنى أن كل التغيرات تكون بطيئة أول الأمر ثم تظهر واضحة جلية عند نقطة بعينها . . ؟ إذا اتحدت ذرتان من الأيدروجين مع ذرة من الأكسجين ألا ينتج عنهما الماء بشكل مباشر دون تغير تدريجي ، ودون نقاط عقدية . . ؟ .

٣٨٨ — لا نريد أن نطيل كثيراً في مناقشة « جدل الطبيعة » هذا فهو ظاهر البطلان ، وقد أفاض « جان بول سارتر » في تفنيده في مناقشاته الخصبية مع الماركسيين الفرنسيين . لكننا نريد في النهاية أن نسوق بعض الملاحظات العامة عن الربط بين الجدل والطبيعة ، وسوف نظهرنا على أن مثل هذا الربط يفتح الباب على مصراعيه أمام المثالية الهيكلية من ناحية ، ويكشف لنا من ناحية أخرى أن هيكل حين تحدث عن جدل الطبيعة كان أكثر اتساقاً وتماسكاً . ثم يتبين من ناحية ثالثة أن القول بجدل الطبيعة والزعم مع ذلك بمعارضة الهيكلية هو تناقض في حد ذاته :

أولاً : إن التسليم بوجود « صراع » بين « الأضداد » الكامنة في جوف الأشياء لا يكون له معنى إلا في حالة واحدة فقط هي التسليم — ولو بطريقة ضمنية — بوجود لون من ألوان الوعي في الطبيعة — ومن هنا فقد كان لهيكل ما يبرره في حدود مذهبه حين مد نطاق الجدل إلى الطبيعة . إذ لو كانت الطبيعة وعياً ذاتياً ضمناً فإنه يمكن في هذه الحالة أن تحلل تحليلاً مشروحاً إلى سلسلة متصلة من الحدود، كل حد فيها — بمعنى ما — على وعى بالحدود التالية داخل السلسلة ، ولا تكون هذه العلاقة بين تلك الحدود واضحة بغير هذا الحيط من الوعي . ومن هنا جاز لهيكل أن يكتب فلسفة الطبيعة ، وأن يتحدث عن صراع الشيء مع نفسه ، ومحاولته الدائمة ليجاوز نفسه وليحقق ذاته . وكيف يمكن للشيء أن يجاوز حدوده نفسها إلا بهذا المعنى . . ؟ وكيف يمكن من ثم أن نفهم مقولتي الإمكان والواقع ،

والقول بوجود إمكان في جوف الشيء يحاول أن يحققه بالفعل حين يحطم حدوده الأصلية ، إلا إذا نسبنا لهذا الشيء لوناً من ألوان الوعي . . ؟ .

ثانياً : إن القول بأن الطبيعة تسير من الأدنى إلى الأعلى ، ومن البسيط إلى المركب في تطورها التتدري الصاعد ، يعني القول بوجود غاية تسعى الطبيعة إلى تحقيقها . وما لم تتحرك الطبيعة نحو غاية ، فلن يكون هناك تقدم ، وبالتالي لن يكون هناك مرحلة دنيا ومرحلة عليا . فإذا قلنا إن هناك مرحلة عليا ، فلن يكون لهذا القول معنى ما لم يشر إلى مستوى من الكمال ، أو إلى غاية تتجه إليها حركة العالم ، ولا يزدنا العالم الحديث بهذه الغاية . أما عند هيغل فالغاية هي التحقق الفعلي للعقل أو الفكرة الشاملة في العالم ، وهذه الغاية تبلغ مداها — إلى حد ما على الأقل — في الإنسان فهو الموجود العاقل .

ثالثاً : القول بأن « العالم كل واحد » ، وأن قوانين الجدل في الطبيعة هي نفسها قوانين الجدل في الحياة الإنسانية ، ثم رد الثانية إلى الأولى ، وبالتالي رد الصراع والتناقضات في الحياة الإنسانية إلى جذورها الأولى في الطبيعة — هذا القول يعني أن هذا الكل الواحد الضخم الذي يخضع لقوانين واحدة ، هو الكل الهيجلي الواعي : هو العقل الشامل . ولنتقارن ما يقوله الماركسيون من اختلافات نوعية بين عمل القوانين الجدلية في الحياة الإنسانية وبين عملها في الطبيعة ، بما يقوله هيغل من أن الطبيعة لا تعبر عن المقولات في صفاتها ونقائسها فليس ثمة اختلاف بين القولين فالمهم أن القوانين واحدة وشاملة : « وذلك يعني أن الطبيعة كلها واعية ، وهي عبارة لا يستطيع قبولها إلا الفيلسوف الهيجلي المثالي وحده »<sup>(١)</sup> ، والحق إن الربط بين القوانين الجدلية في الطبيعة والقوانين الجدلية في الحياة الإنسانية يكشف عن كثير من الخلط والتعسف ؛ لأنه أيا ما كانت أشكال التغيير والحركة في العالم وظواهره ، فإنها يقيناً ليست الأساس في صراع الطبقات . وليس ثمة حاجة إلى أن نبين أن هناك قفزات وظفرات فجائية في الطبيعة ، لكي نبرر الثورة في المجتمع . لأن مشكلة اتصال ظواهر الطبيعة بعضها مع بعض في جميع النقط أو انفصالها عن بعضها

في حالات معينة هي مشكلة تجريبية وحلها لا يعنى على الإطلاق حل المشكلات الاجتماعية<sup>(١)</sup>.

رابعاً : إذا جاز لفيلسوف مثالي مثل هيغل أن يرى في تطور المعرفة البشرية صورة من صور التطور الجدلي للفكر ، فكيف يجوز لرجل مادي أن يتبنى هذه الفكرة .. ؟ كيف يجوز لإنجلز - مثلاً - أن يذهب إلى القول بأن الخطوات التي سارت فيها البشرية في اكتشافها للحرارة هي نفسها الخطوات التي يسير فيها التصنيف الهيجلي للأحكام ... ؟ فإذا كان هذا التصنيف يبدأ بأحكام الملازمة ، فلا بد أن تكون الخطوة الأولى التي تخطوها البشرية نحو اكتشاف الحرارة هي التعرف على هذا الحكم في الطبيعة ، فإنسان ما قبل التاريخ قد عرف - ربما منذ مائة ألف عام - أن الاحتكاك يولد الحرارة « .. وحين جاء الوقت المناسب استطاع العقل البشري أن يصدر هذا الحكم : الاحتكاك هو مصدر الحرارة .. حكم موجب من أحكام الملازمة »<sup>(٢)</sup> وهكذا لم يكن في استطاعة البشرية أن تصل إلى اللون الثاني من الأحكام قبل أن تصوغ هذا الحكم ، ثم كان عليها أن تقوم بمحاولات كثيرة ومتعددة « .. حتى تنتقل من حكم الملازمة السابق إلى هذا الحكم الكلي من أحكام الانعكاس : كل حركة آلية يمكن أن تتحول إلى حرارة عن طريق الاحتكاك .. ». وهكذا تسير البشرية بالضرورة وفقاً للتصنيف الهيجلي للأحكام ، وهو التصنيف اليقيني الذي لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، إلى أن وصلت في النهاية إلى حكم الفكرة ، فصاغت هذا الحكم : « أى صورة من صور الحركة - تحت شروط معينة لكل حالة - يمكن أن تتحول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى أى صورة أخرى من صور الحركة »<sup>(٣)</sup> وهكذا يصبح التطور العقلي لصور الحكم عند هيغل هو نفسه الخط الذي تسير فيه معرفتنا النظرية لطبيعة الحركة بصفة عامة كما يدل على ذلك التاريخ وكما تبرهن التجربة ، وذلك يدلنا على أن قوانين الفكر حين تكون صحيحة ، فإنها لا بد بالضرورة أن تتفق مع قوانين الطبيعة ، وبما أن آخر حكم عند هيغل هو حكم الفكرة ، وطالما أن البشرية

Ibid. p. 76.

(١)

F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 289.

(٢)

Ibid.

(٣)

قد وصلت فعلاً إلى هذا الحكم : « فإن المكتشفات العلمية الجديدة لن تقدم لنا سوى أمثلة توضيحية فحسب ، لأنها لا تستطيع أن تضيف شيئاً جديداً إلى القانون نفسه في صياغته الأخيرة . . . » (١) .

خامساً : إذا كان إنجلز يعيب على هيغل أنه يفرض نسق الفكر على الكون ، فإن هذا هو في الواقع ما يفعله إنجلز نفسه بشكل أكثر تعسفاً ، وإلا فإذا نقول في رجل نجربنا أن تطور العالم المادى والروحى على السواء تحكمه ثلاثة قوانين لا أكثر ولا أقل ، ثم يرفض الخوض في المناقشات التفصيلية لمضمون هذه القوانين وعلاقة كل منها بالآخر . . . ؟ ماذا نقول في رجل لا نجربنا عن مصدر هذه القوانين أكثر من الإحالة المستمرة إلى كتب هيغل . . . ؟ هكذا قال هيغل ، وهكذا يسير الكون ويتم التطور .

نقول إن إنجاز أنشاء فهم الجدل الهيجلى ، وطبقه تطبيقاً أعوج ، حين حطم الرأس وفرض على الجسم السير بلا عقل وبلا وعى . ولعل هذا ما كان يعنيه « هوك » حين قال إن إنجلز أخذ من الجدل الهيجلى أكثر بكثير مما استطاع أن يهضم (٢) . ونقول أيضاً إن الماركسية حين جمعت بين المنطق الهيجلى والمادة قد فرضت على « الماركسية » الهيجالية أن تعمل بوقود غريب عنها - كما يقول فيندلى (٣) .

S. Hook : op. cit. p. 75. (٢)

Ibid. p. 298-9 (١)

J.N. Findlay : "Hegel"; p. 58. (٣)